قلبة دماغ (الأحجية)

اسـم الكتـاب: قلبة دماغ (الأحجية)

التأليـف: سهى قاسم

إخراج فني: سالم عبد المعز سواح

رقم الإيداع: 2022 / 25097

الترقيم الدولي: 978-977-835-331-0

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

٤ ش بديع خيري متفرع من ش عبد الحميد بدوي خلف كنتاكي نادي الشمس مصر الجديدة - مصر.

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

za7ma.kotab@gmail.com Email

Tel 002 01205100596
002 01100662595







(الأحجية)

ستغير نظرتك عن كل شيء!

ليست فلسفة، إنما حياة مختلفة

تأليف

سهى قاسم

هذا الكتاب بدون إهداء لأحد

إنه إهداءٌ لخيبات الظن،

للمعارك التي انتصرت فيها وأنا المقاتل

الوحيد في المُعتَرك

للكسور التي زادتني عِندًا وإصرارًا أن ألتئم

وحدي

وللصفعات التي أدّبت شطحات أمانيَّ

إهداء للسالف ذكره من أدْرَابٍ كانت علّتها

عصيّة المبلَغ

وامتنان وثناء وتكريمٌ للعلة والمبلَغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

كتابنا هو طرح لرؤية لن تشبه الماضي من تفاسيرنا لمجريات الأحداث، بل وفلسفة شاردة مجنونة لا تناظِر ولا تنازِل لكنها تقدح الذهن وتعصف رتيب أفكاره، لا يتحدى ولا ينكر لكنه يطرح فلسفة أخرى، والطرح إن لم يكن في مضمونه إضافة فما هو بمَنْقَصَة - على الأقل - أو عِلة، لقد سعيت أن يكون إطاره هو تجارب ومستخلصات رسالات

---

[1] طه: ٢٥-٢٨.

ومواد علمية ونتائج أبحاثٍ واختبارات حقيقية، فهو مجموع سنوات من العصف الذهني وخلاصة ما يزيد عن مائة كتاب من القراءة والغربلة والتصفية تنوعت بين الفلسفة والمنطق والأدب والعلوم الدينية والشرعية والأخلاقية والمادية وعلوم الاجتماع والثقافة العامة وعلم النفس وتنمية الموارد البشرية وغيرهم الكثير، وأتوجه بخالص الثناء لبلدي ووطني العزيز مصر الذي بث في نفسي الإقدام على خطوة القراءة الجمّة المتخصصة والتي دفعني اليها "المشروع الوطني للقراءة" عندما شاركت في أولى دوراته المقامة في مصر وتأهلت لآخر مراحله على مستوى الجمهورية ثم أعدت التجربة مرة أخرى في الموسم الثاني وتأهلت مرة أخرى من ضمن أفضل قرّاء محافظة الاسكندرية وأوائلها ثم صعدت إلى مرحلة تصفيات الجمهورية، كانت تجربة مدهشة غذّت في نفسي وروحي ما كنت أبحث عنه تمامًا، وأعطتني الفرصة بكل شفافية أن أطرح ذاتي الشغوفة بالعلم والأدب والفلسفة معًا في ضوء جديد راقٍ لم أتخيل أني سأشهده يومًا، وأنا اليوم أطرح ما

جال في ذهني بعد عامين متواصلين من مجاهدة الذات لأنتج هذا العمل، فهذا الكتاب لي قبل قارئه، وإن كنت أنا كاتبه فأنا أوّل قرّائه المعنيين به، فلا يستهدف فئة أو شخصًا بعينه، بل جمهوره هو كلنا، كل من حصرته قواعد المنطق والسببية، والاستسلام للواقع والمحتم من الأحداث الجارية، من تمنّى شيئًا ولم ينله، من قضى عُمرًا في طريقٍ اكتشف أن نهايته لا شيء! ولم يفهم، لكل من أفاق من سكرة الأماني على رائحة نقطة البداية مرة أخرى! ولم تراوده سوى أسئلة العجب، لكل من بذل جهده وما يملك في مطاردة سرابٍ كلما يخطو إليه يبتعده بنفس القَدْر! للساهرة عيونهم أرقًا يتساءلون "لماذا ولماذا لم؟"، للحائرين بين الإجابات المستهلَكة في الكتب وبعض مقاطع التنمية البشرية التجارية، هذا الكتاب إلى كل من ما زالت تراوده أمنيات ضل عنها الطريق منذ أعوام مرّ وقتها وانقضى.. للذين تركوا خلفهم حلمًا واستسلموا لفرض الواقع وعاشوا بنصف سعادة، والذين يتمنون نفس الأمنية في كل حين ولا تحدث أبدًا، هذا الكتاب.. لنا جميعًا بدون استثناء مهما كُنّا، هذا

الكتاب يشمل هؤلاء اللامعين، المثاليين الذين يدركون مبالغ لم أو لن نبلغها! فكلنا بلا استثناء ولا تفرقة، تخلينا عن أمنيات في سبيل أخرى، غضضنا البصر عن آمال وأماني لنبصر احتياجات وضرورات! جميعنا بلا استثناء لديه حلم ومسعى ضل عنه الطريق منذ سنوات ولم ينسه حتى الوقت، جميعنا نحمل أسئلة تبدأ بلماذا عن دروب سلكناها أملًا وكانت نهايتها فراغ أو عقوبة، ودروب استهلكناها بناءً فاستهلكتنا هدمًا، ولم نفهم، جميعنا في وقت من الأوقات "لم نفهم".

أكتب وكلّي أمل، أن يرزقني الله فصاحة اللسان والمَنطِق لأبلغ مقصدي ومراده بإيجاز وبيان، وأن يوفق الله سرده لأصيغ سطورًا هُدى لا سُدًى، وأن يكون مُتواضِع رسم قلمي ثراءً لوقت قارئه.

*****

الباب الثاني والأخير

الباب الثاني والأخير

الفصل الأول

(الفلسفة كما لم تعرفها من قبل؟!)

(كُلنا فلاسفة)

ربما لن يكون من الواضح للقارئ الآن ما هو سبب تسلسل الكتاب بهذا الشكل، ولماذا يبدأ بالباب الأخير أولًا، كما لن يكون واضحًا لماذا يستهل مضمونه بالتعريف عن الفلسفة والعقل البشري وبعض الموضوعات التي ربما يراها القارئ غير مترابطة في الوقت الحالي أو ليست ضرورية!

ولكن بعد صفحات قليلة سيدرك أهمية اطلاعه على التالي ذكره من موضوعات متشعّبة في مجالات شتّى ستتضافر لاحقًا لتشكيل وعي ورؤية مختلفة، لذلك فإن تجاهل هذه الموضوعات لن يؤدي إلى النتيجة المطلوبة من قراءة مؤلَفنا المتواضع..

والآن وبدون مقدمات طويلة، أفرغ عقلك من كل ما يؤرقه ودعنا نبدأ بداية مختلفة قليلًا ونسأل أنفسنا عن أنفسنا وليس عن الأشياء، وأن نفكّر فيما يفكر شخصيًا ونسأل ......

ما هي عقولنا أصلًا وما هو تصورنا عنها؟

مدخل إلى أصل تصور الإنسان عن العقل، ما هو عقلي؟!
(من فلسفة الإغريق إلى الحاسوب!)

الفلسفة ليست مخيفة!

يجد الكثير من العامة في مصطلح "الفلسفة" هيبة أو رهبة تحول بينهم وبين خوض غماره، سواء كان بالاطلاع عليه أو السماع به أو عنه، ويعتبرونه فقط علمًا مختصًا بأهله، وبالرغم من أنه في تفصيله فعلًا يعتبر علمًا مختصًا وتُجرى فيه أصول العلوم كما تُجرى في شتّاها، إلّا أن مصطلح الفلسفة في أصل نشأته كان عامًا لا خصوص فيه والذي يعني اصطلاحًا "حب الحكمة" كما تداوله اليونانيون الذين اُعتِبروا أسلاف مفكري الفلسفة الغربية، تبنّى الإغريق (اليونانيون) دراسة كل ما يتعلّق بالوجود، والمعرفة، والقِيَم، والعقل، واللغة، من خلال التفكر في هذه المسائل والنظر لها بمنظور إدراكي مادي يبحث في ماهيّة الشيء ومصدره وكينونته، وخلاصة دلالة كلمة الفلسفة من حيث اشتقاقها اللغوي هو : "حب الاطلاع والتفكير" أكثر من أنها تعني مجرد حب الحكمة [١]

أين وكيف نشأت الفلسفة؟

يعتقد المؤرخون أن أوائل من بدأوا علم الفلسفة بشكله الإغريقي هم فلاسفة ما قبل سقراط، مثل طاليس وأناكسيماندر، ولكن ينشأ في هذا المفترق جدالٌ عن أصل بداية الفلسفة ويُعتَبَر ذلك أحد الموضوعات المثيرة لخصومات ثقافية في تحديد هوية الفيلسوف الأول، فبعض الفلاسفة الغرب ينسبون نشأة الفلسفة للإغريق بحجة أن فلسفتهم المجردة من كل ما هو غير مادي لا تشبه الفلسفة الشرقية – شرق آسيا والعرب ومصر وشمال إفريقيا وغيرهم - ولكن على صعيد آخر نرى أدلة تدعم أن القول الفلسفي الأول أُطلق من اللسان الشرقي، فقد شجّع في هذا الإتجاه مثلًا ذِكر يمليخيا - تلميذ فيثاغورث - أن طاليس – الفيلسوف المذكور أعلاه – حث فيثاغورث على الإبحار إلى مصر والاختلاط بالدرجة الأولى في ممفيس ليتبادل الحكمة مع كهنة المدينة[٢]، وتطرح بعض النظريات أن طاليس أيضًا قد زار بابل ومصر وحصد جزءًا كبيرًا من حكمته فيهما، وإن لم يعرف المصريون القدماء الفلسفة بشكلها الإغريقي،

ولكنهم تخصصوا في علوم الحكمة وقطعوا فيها أميالًا ومن الأمثلة أمحوتب بن حابو، أشهر حكماء مصر القديمة وأحد مؤسسي مدرسة الحكمة، وعرّف الحكمة بأنها كل ما يستطيع الإنسان تحصيله من معارف بالنظر والعقل وألّف الكتب في الطب والفلك والجراحة [٣] وغيره أيضًا كثيرون مثل بتاح حوتب وأنبو ،وبالعودة إلى فلاسفة اليونان يتتابع القول إلى سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من أعلام الفلاسفة الإغريق الذين تبنوا أفكارًا متباينة حول مفاهيم الوجود والمعرفة والقيم، ومنهم أيضًا من اهتم بالعلوم الرياضية والطبية والأرضية والفلكية والفيزيائية والجغرافية وغيرها من العلوم.

كيف تغيّرت مفاهيم الفلسفة باختلاف الثقافات؟

بتطور الزمن وتسارعه واتساع رقعة التواصل الحضاري بين الثقافات وانتشار أصول التفكير الفلسفي لم يعد القول الفلسفي محصورًا على مفكري ثقافات محددة، ولكنه تطور حتى شهد العالم شعوبًا شتّى تنتهج مبدأ التفكير الفلسفي بما يفسر ويضاهي ثقافتها، فتنقسم الفلسفة عمومًا إلى تصنيفات متباينة كل منهم يحمل أنواعًا مختلفة، فقد تتصنف بحسب محتواها أو وصفها أو أفكارها، ومن أبرز تطورات الفلسفة كمبدأ ونهج للتفكير هي الفلسفة الإسلامية، والتي قادها نخبة من أعلام علماء العرب والمسلمين الذين نافسوا بأفكارهم ومؤلفاتهم وأبحاثهم الفلسفة اليونانيّة، وقد ذاع صيت كثير منهم مثل ابن سينا وابن خلدون وابن الهيثم ولم يكونوا أيضًا فلاسفة فقط بل علماء في مجالات عِدة، وأضافوا إلى التاريخ العلمي من ثراء أبحاثهم ونتائجها، فيعتبر ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع وأوّل من وضعه على أسسه الحديثة، وألف ابن سينا عدة كتب بلغ مجموعها مئتي كتاب في مختلف المجالات

كالجيولوجيا والأحياء والفلك والرياضيات والطب والتي استخدمها العلماء على مدى سبعة قرون لاحقة.

فلم تكن الفلسفة محصورة على فئة أو محظورة على أخرى، واستخدمها المفكرون في شتى العلوم بشتى ضروبها، واتجهت الكثير من النظريات إلى أن الفرد من العامة هو "عالِمٌ" بقدر عِلمه ولا يُحظَرُ عليه التفلسف كمبدأ لممارسة التفكير بجميع درجاته في الحياة العملية.

الفلسفة نظريات مجردة أم تطبيق في الحياة اليومية؟

تنظر بعض علوم الفلسفة في حياة الإنسان اليومية، كبحث عن إجابة لتساؤلاته أو تحليل لأفعاله واختياراته وقراراته، وبالتأكيد لا يغرق هذا النوع منها في التجريد والتعقيد التنظيري البحت، فإن كان هناك فلسفات مجردة تعتمد على النظريات فقط وتبحث في العلوم وتأصيل الوعي والإدراك واللغة [٤]، فهناك أيضًا فلسفات تبحث في مواجهات الإنسان اليومية وتنبش عن أفكاره وعن يومه ومشكلاته وليس عن عموم الجنس البشري أو الكون ومعضلاته، وأحد هذه العلوم هي فلسفة أو علم التنمية البشرية، والتي تعمل على تعديل السلوك الإنساني للفرد وذلك بهدف تطوير آلية تفكيره وتعليمه كيف يعيش حياة طويلة وصحية، وكيف يمكنه أن يكتسب من المعرفة ما يكون له حد كفاية ويحقق لنفسه وأهله حياة كريمة في مجتمع يحفظ فرص الابتكار والإبداع ويتمتع مواطنيه بالاحترام الشخصي والشغف ومستوى الطاقة الإيجابي وغيره [٥] .

فالفلسفة في حد ذاتها مصطلح مرن لا يُحصَر في التنظير ولا يُخسَر نَفع يرجى منه بسبب مصطلحات التجريد صعبة الإدراك ثقيلة الوقع على الآذان، لكنه علم أشمل، وأكثر شعبية من أن تختص به طبقة المثقفين العليا وحدها، أنا شخصيًا أعتبر أن الفلسفة نوع من الرياضة الذهنية المطلوبة لإعمال العقل، فالفلسفة التي تبحث في تأصيل عموم الكون وخصوص الإنسان هي ذات التدبر في الكون التي دعا الله عباده أن ينتهجوها، في قول الله تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ ﴾ **(سورة يونس: ١٠١).**

بل وأيضًا أدرجها الله تعالى ضمن العبادات اليومية مثلها كمثل الذكر، في قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ **(آل عمران: ١٩١).**

وهنا نشهد جليًا أن إعمال العقل في تدبر مخلوقات الله جمادًا وأحياءً هو عبادة يؤجر المرء عليها، بل وأيضًا تدبره في

نفسه وخلقه وبنيانه وتركيبه وتفكيره وعقله، في قول الله تعالى ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ **[الذاريات :٢١].**

وليس فقط على المرء أن يتدبر الحكمة في الموجودات - وهو المعنى الحرفي لاصطلاح كلمة "الفلسفة أو فيلو سوفيا التي تعني حب الحكمة" بل يتعدى الأمر لأن يكون كل فرد هو فيلسوف بقدر عِلمه وخبراته وحكمته والتي بالتأكيد لم ولن تكون أبدًا مطابقة تمامًا لخبرات وحكمة شخص آخر، مما يعني أن لكل منا بصمة فلسفية مختلفة ينتهج بها منهجًا لتسيير حياته ويومه وفقًا لمعتقداته والتي تُلخَص في كلمة "فلسفته".

هل تنمية الموارد البشرية أو تنمية الذات جزء من الفلسفة؟

لم تكن التنمية البشرية كمصطلح في بدايتها مقصودًا منها نفس الشائع عنها حاليًا، بل كانت نظرتها الكلاسيكية في سبعينيات القرن العشرين على أنها عامل ومؤشر يقوم على الدراسة الاقتصادية ليتم رفع الناتج القومي الإجمالي بهدف تحقيق زيادة في مستوى دخل الفرد وارتفاع في مستوى المعيشة ليحقق الاستقلالية الاقتصادية.

وبالطبع كان مضمون التنمية البشرية يختلف باختلاف التسميات المتعددة، فخلال الخمسينات ارتبط المضمون بمسائل الرفاهية الاجتماعية، ثم تحول بعدها إلى أهمية التعليم والتدريب ومن ثم إشباع الحاجات الأساسية، ليقدم مؤخرا برنامج الأمم المتحدة الإنمائي هدفًا جديدًا وهو "تشكيل القدرات البشرية" وكذلك "تمتع البشر بقدراتهم المكتسبة" [٦].

والتنمية البشرية المشهورة حاليًا هي أحد الفروع الهامشية لتنمية الموارد البشرية الأم والتي شملت جوانب

اقتصادية واجتماعية ونفسية وغيرها الكثير، أما الاتجاهات الشائعة الآن على مستوى العامة والتي تختص بالتنمية البشرية النفسية والقوى الذاتية وغيرها من العلوم غير القياسية ذاع صيتها من نهايات القرن الماضي في وسائل الإعلام والتواصل والمراكز التدريبية وغيرها من مصادر المعرفة عنها، ولم تكن قبل ذلك لها نفس الشهرة أو التأثير.

ولنكون أكثر دقة فإن مصطلح "التنمية البشرية" بلفظه الشائع بين العامة ومصطلح "تنمية الذات" هما مصطلحان تتشابه معانيهما وتتقاطع في آن واحد، وكلاهما يعمل على تطوير الفرد، ولكن مقصد تطوير الذات يتعلق بالإنسان المفرد، أما مقصد التنمية البشرية فيتعلق بالجماعات البشرية كعامل مؤثر في المجتمع وفي نفسه.

قد يتفق بعضٌ ويختلف آخرون إذا ما كانت "التنمية البشرية النفسية" أو بمعنى أدق " تطوير الذات" تندرج تحت إطار الفلسفة أو علم النفس، وفي الأصل حتى، يختلف البعض حولها كعلم، هل هي علم منفصل تسري عليه القواعد المنهجية البحثية؟ أم أنها علوم ضمنية أسفل

رئيسيات أخرى مثل العلوم الاجتماعية أو الفلسفة أو علم النفس أو غيره، يعتبرها البعض من مختصي العلوم التجريبية علمًا لا أساس منهجي له، فالتنمية الذاتية هي المعنى الصريح لما نشهده حاليًا من دورات تختص بالتخطيط ومهارات القيادة والإدارة والتحليل والقوى الذاتية والنفسية إلخ إلخ، وذاع سيطها أكثر بسبب اعتمادها بشكل رئيسي على عنصر الجذب لأن لغتها الثقافية بسيطة ومفهومة للعامة، ولكن لا يمكننا أن ننكر دورها في استقطاب فئة كبيرة – خصوصًا الشباب – إلى مسائل مؤثرة وهامة مثل زيادة الوعي وتحسين نفسيتهم كما أيضًا اصبحت تهتم بزيادة إنتاجيتهم وراحتهم في حياتهم اليومية، فإن لم تكن الوسيلة ناجحة لما أدّت غايتها بغض النظر عن كونها فعلًا علمًا منهجيًا أو لا، وأنا شخصيًا لا أختلف ولا أتفق معها مضمونًا، وما قد أختلف فيه هي أنها فعلًا علومٌ لا أكيد فيها حيث أن أغلب أسسها هي فرضيات غير قياسية فبالتالي هي غير مؤكدة، وربما ذلك ينبع من طبيعة دراستي للهندسة سنوات والتي جعلت عقلي يفكر بالدليل القياسي

والرقمي والحسابات فقط، ولكن مقارنة بعلم النفس الذي يختص بذات الاتجاه تقريبًا ولكن بمنظور تحليلي آخر ربما ترجح كفة علم النفس في بعض جوانب المقارنة وتنجح التنمية البشرية في جوانب أخرى، إن علم التنمية البشرية – المعروف حاليًا - يعمل على تطوير الذات بشكل رئيسي عن طريق آلية الاستهداف الفئوي لشرائح شبابية معينة وينتهج لحل المشكلات طرقًا مثل الخطاب اللغوي واستهداف التأثير العاطفي بشكل مباشر، على عكس علم النفس الذي يختص بالبحث التجريبي وفقًا لنظريات منهجية وأصول علمية ودراسات عصبية للسلوك الإنساني وغيرها، ولكني أحترم كليهما في الوصول لغايته فكلاهما أثبت نجاحًا في تطبيقه وإن اختلفنا مع وسيلته، **أمّا وجه تأييدي لعلم التنمية البشرية في أنني شخصيًا أسعى دومًا إلى الخروج من الصندوق والأفق المحدد للعلوم التجريبية، فإن كان المبدأ الوحيد للعلوم كافةً هو التجريب فلن نحصي أبدًا أي علوم أخرى لا تخضع لهذا المبدأ، وفي الحقيقة إن هذه النقطة تحديدًا هي شرارة انطلاق كتابي**، ولكنها ليست بهذه

البساطة التي قد يراها البعض سذاجة في أن نبحث في علوم غير تجريبية! لكن الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك بأشواط، فمثلًا نجد في التنمية البشرية النفسية مبحثًا جديدًا تضيفه إلينا أسسها وإن لم تتمتع بنفس المنهجية التجريبية أو المنهجية البحثية الدراسية كباقي العلوم القياسية، فإنها تضيف إلينا طرائق مغايرة للفكر النمطي وتحدث سبقًا في اتساع نطاق التأثير الشعبي على الجمهور ونفسية العامّة وهذا في حد ذاته نجاح هائل ومن المستحيل أن يكون نجاحًا زائفًا وإلّا ما كان أحدثَ هذه الضجة والتغييرات الضخمة والتأثير المتتابع لعقود طويلة!

فيمكننا اعتبار أن مناهج تطوير الذات أو المعروف حاليًا بالـ "تنمية البشرية" يمكن أن تكون ضربًا من ضروب الفلسفة البسيطة التي تخاطب الجمهور والعامّة وليست الفلسفة التنظيرية المعقدة أو غير التطبيقية.

الفلسفة وتنمية الذات وعلم الأعصاب.. الحاسوب مثال شرح مبسط..

صراحةً وفي مقتبل القول، لن أستفيض مفصلًا في هذا الفرع لأنّي لم أدرسه حد كفاية لأكتب كالعلماء فيه وبالتأكيد لن أدرسه لهذا الحد لأنه ليس تخصصي، ولكن العصف الذهني يتطلب دائمًا أن نكون على دراية بكافة العلوم ،و أنا اؤمن أن علوم الدراسات العصبية هي علوم تجريبية قياسية بحتة، لا تحتمل أن يكون لها تراجم ثقافية أو نفسية ولكنها تستخدم كمؤشرات لجوانب أخرى، فمثلًا يُستخدم القياس الكهربائي للدماغ أثناء قيامه بعملية معينة لتحديد أي جزء من الدماغ سينشط أكثر من باقي الأجزاء أثناء قيامه بهذه العملية، فيحاول المختصون عن طريق ذلك أن يفهموا أكثر عن آلية عمل الدماغ وتركيبه وذلك لأغراض تتعلق بالتطوير والعلاج، فإذا فهمنا مثلًا كيف يمرض الإنسان نستطيع أن نجد له علاجًا، وإذا فهمنا كيف يفكر الإنسان قد نستطيع تطوير فِكره أو حتّى استخدام آلية عمله في تطوير منظومات

أخرى وبالفعل يثبت لنا التاريخ أن هناك أحداثًا واكتشافات مذهلة!

كان يظن الإنسان أن ابتكاره للغة برمجة حاسوبية تكافئ لغة عقله، يصبح بإمكانه تطوير عقل بشري! ولكن لم يكتشف الإنسان آلية عمل دماغه أصلًا حتى يستطيع تطوير لغة برمجة مماثلة، لأن الإنسان في النهاية يستخدم آلية تفكير واحدة، فعندما قام بتطوير أولى لغات البرمجة برمجها باللغة التي يستطيع هو فهمها، فبالتالي أصبحت لغات البرمجة هي ضئيل من نتاج فكره! ويقول ريتش كاروانا كبير الباحثين في مؤسسة ميكروسوفت للأبحاث: "ربما خطر ببالك أن الطريقة التي يعمل بها الذكاء الاصطناعي هي أننا نفهم البشر، ومن ثم نبني الذكاء الاصطناعي بنفس الطريقة تمامًا، لكن الأمور لم تحدث بتلك الطريقة".

واستمر تطور خوارزميات البرمجة الحاسوبية حتى طوّر الإنسان خوارزمية "التعلم الذاتي" والتي أصبحت تشتهر بها أغلب الأجهزة الذكية، فهي تتعامل مع المدخلات بشكل مباشر وغير مباشر، فلا تفهم المدخلات فقط بالنظام الثنائي

"صح وخطأ" لكنها تضع في خطة معالجتها للبيانات المدخلة أيضًا مبدأ "الاحتمال"، مثل أنها تعلّم ذاتها لغات جديدة، ليس لأنها محبة للتعلم! بل لأن خوارزميتها مصممة بمبدأ الاحتمال، إذا قرأتْ نصًا ولم تفهمه فإنها تعرف بذلك أن لغته لم تُرفَق ببرنامجها، فتبحث عن لغته وتقوم بتنصيبها وهكذا، وهذا النظام الاحتمالي أحدث نقلة نوعية ضخمة في مجال المعلوماتية ومعالجة البيانات والذي سُمي لاحقًا بال "تكنولوجيا الذكية"، في الحقيقة هي ليست ذكية، هي فقط تستخدم جزءًا ساحق الضآلة من عملية شديدة البساطة تحدث في عقل الإنسان الذي برمجها بالفعل وهي "مبدأ الاحتمال"، فبهذه الطريقة لا يمكنها أبدًا أن تتجاوز ذكاءه! هي فقط تستطيع تخزين كميات أضخم من المعلومات التي لا يستطيع العقل البشري تخزينها ومعالجتها في وقت واحد، لكنها لا يمكنها مثلًا أن تطوّر نظامًا أكثر كفاءة منها من الصفر كما فعل الإنسان، لا يمكنها ان تشرح درسًا أو تتحرى عن قضية أو حتى تفكر خارج الصندوق أو تبتكر أو تخترع!

فأحد هذه الأمثلة البسيطة يمكن فهمه بسهولة في خدمة "جوجل" للترجمة، أشار أحد العلماء في مجلة ميديام، أنه إذا أردت ترجمة جملة "هو ممرض. هي طبيبة" من الإنجليزية إلى اللغة المجرية، ثم أعدت ترجمتها إلى الإنجليزية ستكون النتيجة التي تعطيها الخوارزمية: "هي ممرضة. هو طبيب". وبالرغم من أنه تم تدريب الخوارزمية على نصوص مشابهة مكونة من حوالي تريليون صفحة إنترنت. ولكن كل ما تستطيع هذه البرامج فعله هو أن تترجم حرفيًا ثم تستخدم مبدأ الاحتمال " الذكي" في أن الأطباء على الأرجح يكونون ذكورًا، وأن الممرضين على الأرجح يكونون إناثًا.

لم يفهم العلم حتى الآن الآلية الكلية التي يعمل بها الدماغ البشري، حتى أكفأ متخصصي الوعي والإدراك الإنساني يعرفون أنه من المستحيل تفسير مبدأ او فكرة الوعي أو حتى مدى مُباشرة ارتباطه بمنطقة محددة في الدماغ والذي يعتقد فيه الباحثون أن الوعي في النهاية قد لا يكون عملية مباشرة محددة بل قد يكون جهدًا عصبيًا جماعيًا لا يمكن حصره!

لذلك مهما تطورت التكنولوجيا فإن محركها الرئيسي وقائدها لا يمكن أن يكون ذاتها، ففي النهاية قدرتها الاستيعابية للمتغيرات ومعالجتها الاحتمالية لا يمكن أن تتجاوز قواعد منهج الاحتمالية، كما أن الحاسوب مهما تطور فهو لا يستطيع تمييز الخطأ من الصواب والحق من الباطل، وخوارزميته المتصلة تقتضي عليه أن كل مدخل إليه يكون أساسًا لمئات وألوفات العمليات التحليلية المبنية على هذا المُدخل، لذلك وُجِد في بعض الاجهزة تفريقًا عنصريًا مثل ترجمة الممرضة والطبيب وغيرها، وهذا بسبب قصور قدرته على الاحتمال خارج ما اختبره قبلًا، وهذه نقطة فارقة بين خوارزمية عقل الإنسان والخوارزمية الحاسوبية، أن الإنسان يستطيع بسهولة فرض الاحتمالات **التي لم يختبرها من قبل** وإن لم يكن ذلك شائعًا لكنه موجود وممكن، وهنا نعود مرة أخرى لمبدأ التفكير خارج الصندوق والذي لا يمكن للحاسوب أن يتمتع به أبدًا.

لعل السرد المبسط عن آلية عمل الحاسوب والذي يعتبر تبسيطًا لواحدة من طرق عمل خوارزميات الدماغ الهائلة جعل هناك تصورًا أفضل عن مدى تعقيد عمل الدماغ وعدم إلمام العلم الحديث باستيعاب آلية عمله أو حدود خوارزمياته أو حتى عددها، أو حتى إذا ما كانت منهج واحد في معالجة البيانات أم مناهج عدة؟

وقفة :-

يهتم علم النفس بدراسة تفصيل علم الأعصاب وعلاقته بالتأثير على نشاط الدماغ وبناء عليه انفعالاته وقراراته وسلوكه ويتخذ قرارات لتقويم هذا السلوك وتحسينه وتطويره وضبطه بما يتفق مع قواعد الحالة الطبية الطبيعية للدماغ البشري ونطمية التفكير التقليدي لديه.

وفي هذا السياق أيضًا تتخذ علوم تنمية الذات منهجًا مشابهًا يعتمد على الخطاب الحثّي، والذي يعتبر أحد وسائل التأثير التي يتقبلها الدماغ لترويض أفكاره والتي هي في الأصل منشأها " الفكرة " أي أنه يعالج "الفكرة بالفكرة" متبنيًا المبدأ الطاقي في التأثير وأن الأفكار تمتلك طاقات سلبية وإيجابية تؤثر في اتخاذ المرء للقرار، في حين يفترض علم النفس مع الاعصاب أن الأفكار هي نتاجات عصبية يمكن ترويضها بحلول كيميائية وتدخّلية إذا لم يستجب

الدماغ لمنهج " تغيير الفكرة بالفكرة"، وهنا ليس المقصود فقط علاج حالات الاعتلال النفسي ولكن مبدأ التغيير العام سواء في تطوير الدماغ الطبيعي أو محاولة رفع كفاءته أو علاج قصور فيه أو غيرهم من العمليات الاختبارية عليه للوصول لنتائج افضل.

لذلك فإن خلاصة القول هي أن جميع العلوم النفسية والعصبية والفلسفية تجد طريقًا مشتركًا وجميعها علوم لا حصر ولا حدود لها وما زالت تحتمل فرضيات ونظريات جديدة في كل يوم ودقيقة وساعة.

ولعل السرد في آلية عمل الدماغ والحاسوب وغيرهما من الأمثلة وضّح للقارئ مدى تعقيد العمليات التي تحدث داخل العقل البشري، وبدون أن يعرف القارئ ويتصور مدى هذا التعقيد فإن هذا الكتاب كله لن يكون له تأثير كبير عليه كقارئ يظن أن العقل البشري هو بعض خوارزميات وإشارات عصبية فقط.

فإذا استطعت -ايها القارئ العزيز - أن تدقق النظر وتتفكر في أمور الدنيا بعين الفيلسوف المُتَدَبر لخلق اللّه، ستعرف كم ان عقلك في حد ذاته معضلة إعجازية ..

إن ما تم سرده في الصفحات القليلة الماضية سيكون إن شاء اللّه مدخلًا رائعًا لك ولعقلك لخوض فلسفة الأحجية.

*****

الباب الثاني

الفصل الثاني

(ماذا يوجد خارج الصندوق)

(الأحجية - المتسلسلة كاف - الورقة والدائرة)

إن أهداف الفصل الأول يمكن أن تختصر لقارئه في فقرة بسيطة، لا يرجى معناها إذا لم يطلع القارئ على تفصيل فصلها، وهي أن علم الأعصاب يساهم في تفسير آلية عمل العقل البشري والذي تترجمه الفلسفة وتحاول أيضًا تفسيره بالتوازي مع العلوم المادية الأخرى وتطرح الفلسفة النظريات التي يُبحث فيها تطبيقيًا أيضًا، أي **أن كل نظرية كانت في الأصل فلسفة** تم اختبارها علميًا أو عمليًا لتتحول إلى نظرية تتمتع بقدرة تفسيرية على ظاهرة ما، فمثلًا عند تكوين نظرية النسبية العامة لأينشتاين لم تكن جميع بنودها مثبتة علميًا وما زالت حتى الآن مع كل هذه الإثباتات موضوعة تحت الاختبار، ويتجه العلم حاليًا لقياس النظريات

بناءً على قدرتها التفسيرية للظواهر وليس بالحكم المطلق للصحة أو الخطأ أو التسليم التام بأي نظرية موضوعة، فمثلًا ظهور أي إشارة تدلّ على وجود ثغرة في نظرية النسبية، قد يشعل شرارة تطوير نظرية جديدة كليًا عن الجاذبية، وهذا شيء ما زال خارج إطار الفهم المطلق [٧]، فهذا هو نفس المبدأ والمنطلق الذي تسير به تفاسير العلاقات بين الفلسفة والعلوم التجريبية مثل الفيزياء أو علم النفس أو الأعصاب أو غيرها، ففي الأصل كانت نظرية النسبية هي فلسفة عن النسبة كما كانت جميع النظريات في بداياتها مجرد فرضية سواء أُثبتت أو لا، وبحسب رسالة تم اكتشافها، فإن ألبرت أينشتاين فحص أعمال الفيلسوف ديفيد هيوم – وهو فيلسوف اسكتلندي - وذلك قبل أن يطلق نظريته النسبية. وفي هذه الرسالة التي خطّها أينشتاين إلى زميله في فيينا أستاذ الفيزياء موريتس شليك في نهاية ١٩١٥ يقول أينشتاين أن كتابات هيوم ألهمته في نظريته، وقال أينشتاين "من المحتمل جدًا أنه دون هذه الدراسات الفلسفية لم يكن ليسعني القول أنه يمكنني التوصل إلى حل". [٨]

“I studied with passion and admiration shortly before discovering the theory of relativity. Very possibly, I wouldn’t have come to the solution without those philosophical studies“ [(8)]

،(A. Einstein, Berlin, 14 December 1915

Translated and annotated by Bertram Schwarzschild)

لذلك، فإن علوم الفلسفة ليست علومًا تنظيرية بحتة أو علومًا إضافية بل هي أساس الفِكر النقدي والمغاير للأنماط المعهودة والمعنى الفصيح **لـ " الخروج عن الصندوق " بدراسة صريح " الصندوق " نفسه، وهنا يبدأ صميم غاية الكتاب، في تجربة الفلسفة المجنونة! فلسفة الأحجية.**

الأحجية

ببساطة بالغة، الأحجية هي لعبة سهلة جدًا، تفترض بأنك تمتلك أحجية **Puzzle**، مكونة من اربعة مربعات حجرية، مرسوم على كل مربع منها مجموعة من اجزاء اشكال هندسية غير مكتملة، مطلوب منك فيها تجميع الأحجار المربعة لتكوين **شكل هندسي كامل** من بين مجموعة أشكال غير مرتبة وغير مكتملة.

وضعتَ أولى أحجار الأحجية على الطاولة وبدأت في ترتيب الأحجار الأخرى حتى تكوّن شكلًا كاملًا من بين مجموعة الأشكال غير المرتبة، وعندما وجدت شكل دائرة شارفَ على التكون، ازداد حماسك في انهائه، وبعد أن انتهيت من تكوين الدائرة، ودققت النظر مرة أخرى، وجدت أنه كان هناك أوضاعًا أخرى للأحجار يمكنها تكوين أشكال أخرى أيضًا مثل المربع والمثلث وليست الدائرة فقط! ولكنك لم تفكر فيها من

البداية! فبدأت بتغيير إتجاهات الأحجار مرة أخرى واستطعت تكوين عدة أشكال بعدة طرق مختلفة! ثم فجأة بدأت تلاحظ أن هناك عددًا هائلًا من الأشكال الهندسية التي يمكن تكوينها مع تغيير وضعيات الأحجار والتي لا تستطيع إنهاءها حتى في جلسة واحدة! فوقفت تفكر! ماذا يحدث؟!

وقفة:-

"يستطيع الذكاء الاصطناعي AI تكوين عدد لا نهائي من الحالات التي تكوّن الأشكال الهندسية المطلوبة، وذلك عن طريق استخدام مبادئ التباديل والتوافيق والمصفوفات لتكوين أشكال هندسية غير منتهية مع كل حركة او تغيير في وضعية او اتجاه أحجار اللعب في الأحجية وبالرغم من أن هذا شيء يصعب على الإنسان أو قد يستحيل عليه تكوينه بنفسه، ولكن يستطيع الذكاء الاصطناعي تكوين أكثر من أربعين ألف حالة شكل هندسي من أحجية تتكون من أربعة احجار فقط!"

في البداية استطعتَ تكوين شكل الدائرة والتي ميّزها الذهن بسهولة واستطاع التعرف على العلاقة بين أجزائها (ربع الدائرة) لتكوين الدائرة الكاملة، وفي كل خطوة يأخذها اللاعب أثناء تكوين هذه الدائرة يجد الأشكال الأخرى (المربع – المعين – المثلث) لا تتكون، فيتأكد أنه يسير على الطريق السليم، ويبدأ عقله تدريجيًا في تجاهل الأشكال الأخرى الموجودة بالفعل على رقعة اللعب لأنه يظن أنها ليست كاملة، وهي بالفعل ليست كاملة عند تكوين الدائرة، وكذلك لن تكون الدائرة كاملة اثناء تكوين المثلث او المربع، وذلك وفقًا لمنظومة التباديل والتوافيق التي تمنع اي شكل منهم من التكوّن اثناء تكوّن الآخر.

لذلك كان الدماغ يتجاهل تلقائيًا الأشكال الأخرى ولا يحاول أن يوجد العلاقات بينها وذلك لأنه أثناء قراءة قواعد اللعبة وجد كلمة **"شكلًا كاملًا"** مظللة بالأسود الثقيل وأسفلها مخطوط، فترجم الدماغ تلقائيًا في البداية أن هناك شكلًا واحدًا فقط هو الكامل أو على الأقل عدد قليل من الأشكال الكاملة وأن باقي الأشكال ما هي إلّا للتمويه!

بالرغم من أن قواعد اللعبة لم تذكر ذلك إطلاقًا! بل فقط أكّدت على إيجاد شكل كامل ليس أكثر! فكيف ترجم الدماغ أن هناك شكلًا كاملًا واحدًا على رقعة اللعب؟ بالرغم من أن المطلوب هو إيجاد شكل كامل واحد لتنتهي اللعبة وليس لتنتهي الأشكال على الرقعة!

استطردتَ في إعادة ترتيب الأحجار مرارًا وتكوين أشكال هندسية مختلفة بالفعل، ولكنك لم تدرك أصلًا أن أي ترتيب هندسي ستقوم به في الأحجية سينتج شكلًا هندسيًا، وذلك لأن الأحجية مصممة على أن تنتج شكلًا أو أكثر في أي حالة لها أيًا كانت، لذلك فإن عدد التكوينات التي يمكنها أن تنتج أشكالًا هندسية هي ما يقارب الـ ٤٣٦٨٠ تكوين، بالتالي فأي تكوين ستقوم به سينتج شكلًا هندسيًا، وهي الفكرة التي لم يتوقعها اي شخص بدأ الأحجية بالتسلسل المذكور، فعند بداية اللعب كان العقل يجد أن احتمال وجود عدد لا نهائي من التكوينات التي تعطي نفس النتيجة هو احتمال مستحيل، لأن العقل أصلًا لا يستوعب منطق التفكير في حلول المشاكل باللا

محدودية، ولكنه يفترض دائمًا أن هناك حلًا، وكلما كان أكثر توسعًا، أدرك أن هناك أكثر من حل، ولكنه في النهاية لا يتوقع أن الحلول قد تكون لا نهائية! أو أن جميع الحلول أصلًا صحيحة! فالعقل يسوق نفسه دائمًا إلى المحدودية وذلك بسبب طبيعته التي تحلل البيانات وتعالجها، ولا تستطيع التعامل مع عدد ضخم من المدخلات في نفس الوقت !

ولكن في الحقيقة أن هذه ليست نهاية الأحجية، لأنك الآن متفاجئ أن هناك ٤٣٦٨٠ شكل هندسي آخر بتكوينات أخرى في نفس الأحجية! ولكن إذا قمت بترتيبها رأسيًا وليس أفقيًا، أي أن سيف الأحجار أيضًا منقوش عليه أشكال أخرى من الصعب على اللاعب رؤيتها في اول مرة وحتى إن رآها فإنه لن يتوقع أنه يستطيع اللعب بها أيضًا!

وفي الحقيقة، لم تعرض أبدًا قواعد الأحجية أنه لا يمكن حلها سوى أفقيًا! بل اخبرت فقط بإيجاد شكل هندسي كامل! ولكن العقل افترض تلقائيًا، أن هذا الشكل سيكون

أفقيًا! لأن الأحجية طُرحت أمامه افقية، ولأن أغلب الأحاجي بهذا الشكل تكون أفقية، ولأن الأشكال المرئية أمامه أفقية، فجمّع العقل هذه القواعد المسجلة في ثناياه مسبقًا بناءً على تجاربه السابقة وافترض أن الأحجية ستكون أصلًا أفقية! رغم أن القواعد لم تذكر أي قيود أخرى! ولكن العقل تلقائيًا وضع هذه الشروط.

وهنا نقف قليلًا لنسأل فعلًا، هل أي مساق يتخذه العقل يكون فعلًا هو الحل الوحيد أو حتى واحد من مجموعة حلول محدودة؟ أو يكون هو الحل أصلًا؟ ربما كان الحل فعلًا هو فقط أن نخرج من إطار النمطية أو المنطق أو التجارب السابقة ونختبر ضروبًا أخرى من التفكير، أو نسلك **منهجًا آخر لا يحلل المدخلات بنفس الكيفية التقليدية.**

إن الأحجية هي مثال بسيط لا يقصد به أن يكون تحليلًا علميًا، ولكنه اختبار عابر للمنطقية والنمطية وعلاقتهما بالاختيارات اليومية، فتخيل أننا نفعل ذلك يوميًا في حل جميع المواقف؟ وأن دماغنا دائمًا يحصرنا في بضعة

اختيارات فقط؟ حين يتقدم شخص لوظيفة مثلًا، فإنه يسير بالتسلسل الطبيعي للتقدم والقبول والرفض، ولكن هل هذا فعلًا هو السياق الوحيد للعمل؟ أم أن هناك ألف سياق؟ أو عدد لا نهائي من الحلول؟ أم أن الأمر اصلًا أكبر من العمل والوظائف والتوظيف! الكون شاسع.

وبنفس الفكرة التي عرضتها الأحجية السابقة! يمكننا أن نطرح بعض الإشكالات التي تؤدي إلى نفس النتيجة!

وأعلم أن هذه التجربة ستعجب الكثير من محبي الحسابات والرياضيات، لإنهم أكثر الناس منهجية ولا يعترفون سوى بلغة الارقام

المتسلسلة " كاف "

إذا كانت لدينا سـلسـلة من مجموعة أرقام ١ ثم ٢ ثم ٤ ثم ٨ ثم (.......) نقاط فارغة، هل تسـتطيع إكمال هذه السلسلة من الاختيارات التالية؟

(١٦ – ١٠ – ١٥ – اجابة اخرى)

(للاطلاع على الإجابة في الصفحة التالية يكون ذلك بعد اختيارك للحل الصحيح أولاً)

أغلب من تعرضوا لهذا السؤال كانت اجابتهم هي ١٦ وهي فعلًا إجابة صحيحة ولكن الحقيقة ايضًا أن **كل الإجابات صحيحة وأن أي رقم سيوضع أصلًا مكان النقاط سيكون صحيحًا!**

يبدأ العقل في إيجاد علاقة بين الأرقام الأولى، فيجد أن الأرقام تتضاعف، الاثنان هي الواحد ضرب اثنين، والأربعة هي الاثنان ضرب نفسها والثمانية هي الأربعة ضرب اثنين، وهذه تعتبر أدلة مطمْئنة وكافية أن الافتراض الذي وضعه العقل للسلسلة سليم! بالتالي سيكون الحل هو ١٦ لأنها ضرب الثمانية في اثنين كذلك! أو التفسير الثاني أن العدد التالي هو مجموع كافة الأعداد السابقة مضافًا إليها ١ ليعطي أيضًا ١٦، أو الحل الثالث ان الأعداد مرتبة بحسب قوة الرقم اثنين، أي ٢ مرفوعة للأس صفر ثم ١ ثم ٢ وهكذا، وجميع هذه الطرق تؤدي إلى أن الرقم الناقص مكان النقاط هو ١٦ بأي طريقة سلكها عقلك.

ولكن الواقع أن الإجابات الأخرى أيضًا صحيحة!

فإذا كانت السلسلة (مرة يضرب ومرة يضيف اثنين)

١ ضرب ٢ = ٢

٢ + ٢ = ٤

٤ ضرب ٢ = ٨

٨+٢ = ١٠

تكون الإجابة هنا هي ١٠

أو طريقة أخرى

(مجموع آخر عددين مضافًا إليهما المتسلسلة ١,٢,٣ ....
)

(١+٢) +١ = ٤

(٢+٤) + ٢ = ٨

(٤+٨)+٣ = ١٥

تكون الإجابة للرقم الناقص هي ١٥

وبهذه الطريقة يمكن إيجاد عدد طرق لا نهائي وعلاقات لا نهائية بين هذه الأعداد لإكمال السلسلة! ولذلك كتبت عنها -اختصارًا- المتسلسلة " كاف " والذي يرمز إلى " كل الإجابات صحيحة "

وإذا أردنا ذكر أمثلة تُحمَل بنفس المبدأ (جميع الحلول صحيحة) فيمكننا أن نؤلف سلاسل لا نهائية من الكتب التي تذكر مسائل وإشكاليات ومواقف نظن أن لها حلًا أو مجموعة حلول ولكن في حقيقتها أن جميع الحلول صحيحة بالمطلق!

ولكن أيضًا، ليس التفكير في حل واحد هو وجه النمطية الوحيد، فحتى لو أصبح العقل يفكر بهذه الطريقة "أن كل الحلول صحية"، يظل العقل أيضًا أسيرًا للأنماط المتعارف عليها وخبراته السابقة وتأثيرها على اتخاذ القرار وهي التي أسميها شخصيًا (افتراضات العقل لملء الفراغات)، ومنها التفكير في السياق التقليدي أو المعروف أو المُختَبَر مُسبقًا، والتي أيضًا تعرف بالمنطقة الآمنة ليس فقط فيزيائيًا أو ماديًا بل أيضًا الآمنة فكريًا .

ولكن ماذا يعني ذلك؟

الورقة والدائرة

إذا أعطيتك ورقة، كم دائرة يمكنك رسمها بدون رفع يدك عن هذه الورقة؟

قبل ان تقرأ الإجابة، فكر في السؤال عدة مرّات!

أغلب الذين تعلموا من أحجية المتسلسلة أو الأحجار السابقتين، سيقولون بالتأكيد عددًا لا نهائيًا من الدوائر فوق بعضها البعض، ولكن الفكرة هنا أنك اصلًا لن تستطيع رسم ولا دائرة بدون قلم!

كانت المعطيات واضحة "إذا أعطيتك ورقة، كم دائرة يمكنك رسمها بدون رفع يدك عن هذه الورقة؟ "

ولم تتضمن إطلاقًا وجود أقلام ولكن عقلك افترض أن هناك قلمًا لأن هناك رسمة! وهذا خطأ جسيم يحدثه التفكير التقليدي أنه يضع **افتراضات لملء الفراغات** حتى يستطيع إكمال الصورة أو الموقف ليراه بالشكل الذي يعرفه أو اعتاده أو حتى يبدو مألوفًا له وإن كانت تلك الألفة ضبابية! وهذه الظاهرة هي أزمة فكرية تنشأ عن تراكم الخبرات بدون وعي أو تقييم لها، وما يُحدثه العُلماء والمبتكرون والمفكرون دائمًا هو كسر هذه القوالب النمطية في التفكير، ويمنعون أدمغتهم تمامًا من الافتراض بناءً على أي خبرات، وذلك لمعرفتهم أن كل الخبرات نسبية، فمثلًا، في أواخر

القرن السابع عشر اعتقد بعض علماء الفيزياء أن الضوء يسير في صورة موجات، لكنهم لم يستطيعوا أن يفسروا كيف أن الضوء يمكنه السير بدون وسط خلال الفضاء ليصل إلينا في صورة ضوء النجوم، وكان السياق الطبيعي للتفكير عن طريق تراكم الخبرات أن يفترضوا وجود وسط حامل لهذه الموجات سموّه بالأثير وأن هذ الوسط يعمل كحامل للضوء ووصفوه بأنه مادة مختلفة كليًا وتكوينيًا عن المواد الأخرى. وأيضًا افترضوا أنه لا يمكن رؤيته أو الإحساس به أو وزنه، ويمكن إيجاده في الفراغات والفضاء الخارجي، واعتقد العلماء أن الأثير هو كيانُ ثابت وأن الكرة الأرضية والأجسام الأخرى الموجودة في الفضاء تتحرك خلاله.

في الأغلب كان يحاول معظم العلماء في تلك الفترة إثبات صحة وجود الأثير بتفسيرات مختلفة، وتضافرت أبحاثهم حول هذا الإثبات وتفسيره للتأكيد على نظرياتهم حول الضوء، وكان من الممكن أن يكمل أينشتاين ابحاثه بناءً على تجاربهم أو خبراتهم المتراكمة في هذا المجال وأيضًا أبحاثهم التي لاقت رواجًا كبيرًا بين الجمهور المعني بالأمر، ولكن

يُفاجأ العالَم بأن أينشتاين يفترض في نظريته النسبية أنه لا يوجد وسط اثيري أصلًا! ويبتكر نظريات كاملة بناءً على هذا الافتراض الجديد كليًا، وهذا هو نهج كافة المفكرين والعلماء والمبتكرين في كسر قوالب النمطية والتفكير خارج حدود المألوف أو المتوقَع، والسؤال الدائم بماذا لو؟ بل وأيضًا توقع الكم الهائل من الاحتمالات، حتى الغير ممكن منها وما لم يوجد دليل عليه بعد.

وقفة:-

ملخص الإشكالات والأحجية السابقة والمسائل المطروحة

- يفترض العقل دائمًا كل ما ينقصه ليكمل به الصورة بناءً على تجاربه السابقة أو ما يألفه أو خبراته المتراكمة، ولا يشترط أن يكون هذا الإكمال للنواقص في محله الصحيح بل يمكن أن يكون محض افتراضات خاطئة تصبح أكثر خطأ عند التراكم.

- يفعل العقل هذا النشاط "الافتراض" يوميًا ولحظيًا في كل المواقف التي يمر بها تقريبًا، لأنه من المنطقي أن لا يكون هناك موقف كامل المعطيات من كافة الجهات أبدًا، ويستطيع العقل أن يصيب في أجزاء من الافتراض لإكمال الصورة وفهمها وترجمتها ولكنه يخطئ الافتراض في الكثير أيضًا، ولا يلاحظ إطلاقًا أنه أخطأ في ذلك، وأنا شخصيًا أسمي هذا النشاط بال "الافتراض العبثي الدائم" ويؤدي هذا

الافتراض لسلسلة من التراكمات الافتراضية التي تشكل وعيًا زائفًا بالواقع بعد ذلك.

- يفكر الدماغ أولًا في الحلول التي اختبرها من قبل او يعرفها أو يألفها ويعتبرها منطقة تفكير آمنة لا تستلزم منه جهدًا كبيرًا، والإنسان بطبعه يحاول دومًا الحفاظ على طاقته وجهده في رحلته على الأرض للنجاة والعيش أطول وقت ممكن.

- يستبعد الدماغ تلقائيًا الحلول الأخرى عند وجود دليل في أحد الحلول على الأقل، مثلما استبعد وجود شكل مربع أو مثلث عند وجود دليل على اقتراب اكتمال شكل الدائرة في الأحجية **puzzle** وذلك على الاقل في المرة الأولى اثناء تكوينه الدائرة.

- من النهج التقليدي للتفكير – وهو طبيعي – أن يفكر العقل في مسار واحد من بدايته لنهايته أولًا ثم يعاود التفكير في مسار جديد، ولا يستطيع الدمج بين مسارين مختلفين من البداية للنهاية في نفس الوقت، لذلك لا يمكنه رسم

سيناريو لمشكلة يمر بها مع سيناريو آخر مختلف في بدايته ونهايته في نفس الوقت، فمثلًا لا يستطيع طالب ثانوية تخيل حياته كطبيب ومحامٍ في نفس الوقت ولكن يمكنه تصور سيناريو حياته كطبيب أولًا ثم إعادة التخيل كمحام ثانيًا، وهذا ينطبق على كافة السيناريوهات التي يمكن أن تحدث للإنسان، فهو دائمًا يتخيل نفسه في مسار واحد يفترضه ويفترض تفاصيله حتى يصل لمجموعة هائلة من الافتراضات والتي يمكن ان يكون أغلبها أصلًا خاطئ أو في غير محله! ثم يعاود التفكير في سيناريو آخر بنفس النهج تمامًا، بينما لا يسير الواقع بهذه الطريقة اصلاً!

- لا يستطيع العقل التنبؤ بالحلول التي لم يختبرها من قبل، فلم يستطع توقع أن الأحجية يمكن أن تُلعب رأسية على سيوف الأحجار، او أن تلعب مقلوبة على ظهرها، أو أن المتسلسلة يمكن أن تتضمن متسلسلات أصغر بداخلها لتؤدي إلى نتائج مختلفة!

- يفكر العقل دائمًا في النتائج التي يرى معطياتها فقط وهذه نقطة مفرقية في تصور الإنسان عن مستقبله، فهو لا يستطيع أن يتخيل أو يتصور أي شيئ لا يوجد له مقدمة أو دليل ولا يضع مثل هذه الحلول في حسبانه مطلقًا.

الباب الثاني

الفصل الثالث

(الدماغ المُعدّل)

تأثير الدماغ على الدماغ

الدكتور نورمان دويدج – وهو طبيب ومحلل نفسي كما أنه ألّف كتابًا بعنوان "العقل الذي يغير نفسه" واستطرد فيه عن نظرية شفاء الدماغ ذاتيًا، كان هذا أحد الكتب التي ألهمتني ودفعتني لقراءته وتلخيصه، وفي الحقيقة لولا وجود مشروع القراءة فقد أكون حتى اليوم لم أستكشف شغفي في الاطلاع على الكتب العلمية لهذا الحد، فقد اعتدت دائمًا على فحص الرسائل العلمية وذلك بحكم دراساتي الاكاديمية، ولم أكن اتخيل أن قراءة الكتب العلمية والفلسفية والأدبية أيضًا ستكون حافلة بما يُمكن أن يُثري جوانب أخرى غير العلوم البحتة المصبوغة في الورقة البحثية.

القراءة في مجالات متعددة لم تفتح لي فقط افق الاطلاع على علومٍ لم اقرأ فيها يومًا، ولكنها أيضًا – صراحةً – غيّرت عقلي تمامًا وسمحت للأفكار أن تكون أكثر ترابطًا ومنطقية، فكرة الاطلاع والقراءة في حد ذاتها تمثل جمعًا لثقافات وآراء ونظريات وأزمنة كُثر لتستخلَص في عقلٍ واحد! والقراءة في عدة مجالات، تسمح للعقل أن يستكشفَ علومًا لم يدفعه شغفه لمعاينتها من قبل، فلم تتكامل قبلًا مع العلوم الموجودة فيه فعليًا، لتظل هذه العلوم الراكدة تسير في اتجاه تفسيري واحد ولا تتكون صورة جديدة أو قراءة أخرى عنها ابدًا، لذلك **فأنا أعتقد أن العقل الذي لا يطّلع سوى على علوم تخصه فإنه ما زال ينقصه الكثير ليستطيع حتى تفسير تلك العلوم أو رؤية صورتها التكاملية مع الكون.**

أما الدكتور نورمان دويدج، يتحدث في كتابه باختصار عن أحد الاكتشافات المفرقية التي تُخبر بأن الدماغ البشري يمكن أن يغير نفسه! ويؤكد هذه النظرية بحالات حقيقية لأشخاص طوّعوا قدرة الدماغ على التغيير الذاتي في الشفاء

وتطوير القدرات الوظيفية الدماغية! ويضيف قائلًا أن في الماضي اعتبر الاتجاه الطبي السائد أن التركيب البنيوي للدماغ ثابت ولا يتغير ولا حتّى يعالج نفسه، ولكن في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، اكتشف مجموعة من رواد علماء الدماغ سلسلة من النتائج غير المتوقعة، حيث أنهم وجدوا تغيرًا في كل نشاط قام به الدماغ، لتحسين الدوائر الكهربية إلى الحد الأمثل ليلائم المهمة الموكلة إليه، وأُطلِقَ على هذه الخاصية " اللدونة العصبية "، ويفيد أيضًا بأنه تحدث إلى حائزين على جائزة نوبل والذين أعربوا عن رغبتهم في إعادة التفكير بنموذج الدماغ الثابت بعد إدراكهم ان الدماغ فعليًا يتغير بإستمرار [٩] .

ومن الأدلة التي أراها شخصيًا تدعم هذا الاتجاه في قدرة الدماغ على التغير، حين أظهرت الدراسات العلمية التي نشرتها دورية "جورنال أوف نيوروساينس" (Journal of Neuroscience)، أن هناك اختلافات ملحوظة في اتجاه عمل الخلايا العصبية للمكفوفين مقارنًة بصحيحي النظر.

ووِجد في ذلك، أن الأشخاص الذين تعرضوا لفقدان البصر في أعمار صغيرة، أظهروا دقة عالية في التفرقة بين الأصوات وساهم في ذلك أن القشرة السمعية لديهم صارت أكثر حساسية، مما يؤكد فكرة اللدونة المؤثرة في القشرة السمعية [١٠] .

كما وأيضًا أثبتت تجارب أخرى على مجموعة من الفئران – التي يُعتقد أنها ثديات تشارك البشر في العديد من العمليات الحيوية– أن النشاط أو البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي يمكن أن تحدث تغييرات على تركيب الدماغ، واستدل مُجري التجربة بأنه حين اختبر مجموعتين من الفئران أحدهما في بيئة تنشط فيها المنبهات العصبية وأحدهما في بيئة هادئة، كانت الفئران في البيئة المُنبهة تحمل أدمغة أثقل وزنًا وبها عدد اكبر من الناقلات العصبية من تلك التي كانت تعيش في بيئة هادئة! [١١] .

ويقول أيضًا ميرزنيتش- اختصاصي بارز في علوم اللدونة العصبية – أن ممارسة مهارة جديدة في بيئة مناسبة يمكن

أن يحدث تغييرًا في الملايين من الاتصالات بين الخلايا العصبية في الخريطة الدماغية [١٢]

تعرف هذه الظاهرة الآن بالـ Biofeedback أو الارتجاع البيولوجي والتي أصبحت تتضمن تَقنيّة يمكن استخدامها للتحكم في بعض الوظائف الجسديّة، مثل سرعة القلب أو حرارة كف اليد أو غيرهم من الظواهر البيولوجية.

ويتم خلالها توصيل الشخص إلى حساسات كهربائيّة تساعده على تلقّي معلومات فورية عن جسده مثل حرارته اللحظية أو سرعة ضربات قلبه . وتساعد هذه العملية في التّركيز الشخصي على إحداث تغييرات في الجسم، مثل إرخاء عَضلات مُحددة أو تغيير معدل النبض مثلًا، بهدف الوصول لنتائج صحية، مثل تسكين الألم أو خفض حرارة الجسد المرتفعة أو رفع حرارته المنخفضة . ويمثل هذا الارتجاع البيولوجيّ المقدرة المباشرة على الاستفادة من الأفكار الذاتية للتحكّم بالجسم غالبًا بهدف علاج المشاكل الصحية[١٣] .

العقل بين المحدودية واللانهائية (عصف ذهني)

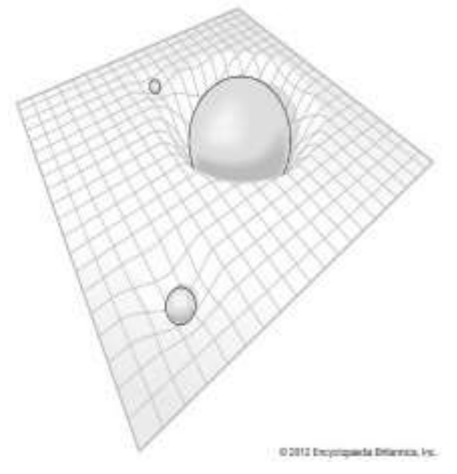
وفي نفس السياق السابق ذكره وبنفس مبدأ اللدونة العصبية وظاهرة تأثير الدماغ على نفسه، ماذا لو استطاع الإنسان تغيير خوارزميات تفكيره أو التعديل فيها أو حتى إضافة خوارزمية تفكير جديدة إليها؟ فمثلًا إذا كان العقل يفكر في حلول المشكلات بحسب المعطيات الموجودة فقط، فهل يمكن تدريب العقل على التفكير في المشكلات بمعطيات غير موجودة؟ يمكن فرضًا خلق هذه المعطيات لاحقًا؟ تمامًا كما فعل أينشتاين عندما افترض مبدأ حيود الضوء، وأن الضوء يحدث له انحناء على جانبي الأجسام ذات الكتل الكبيرة، في حين أن العلماء كانوا يظنون ان الضوء يسير فقط في خطوط مستقيمة ولا يمكنه تجاوز الأجسام التي تعترضه! ولكن كان لأينشتاين فلسفة مختلفة وبالرغم من عدم وجود أدلة كافية لها إلا أنه وضعها كفلسفة مبدأية وعرّضها للإختبار بعد ذلك وبالفعل تم إثبات إنحناء الضوء على جوانب الأجسام بتجربة عملية أثناء كسوف الشمس

ووجد أن ضوء النجوم استطاع الانحناء حول الكرة الشمسية ليصل إلى عين الرائي.

إن طريقة التفكير في حل مشكلة مثل دراسة سلوك الضوء جاء مخالفًا للتوقعات حيث افترض مبدأ لم يكن موجودًا أصلًا وليست له أدلة مباشرة أو معطيات واضحة.

كذلك أيضًا كان الشائع جدًا وربما ما زال البعض يتصور حتى الآن أن الجاذبية التي اكتشفها نيوتن هي نفسها التي اعتمدتها نظرية النسبية، حيث تقول نظرية الجاذبية لنيوتن أن كل شيء مكون من مادة يستطيع أن يجذب أي شيء مكون من مادة أخرى (على سبيل المثال: الأرض والإنسان) ويحدث ذلك عن طريق قوة تتناسب تناسبًا طرديًا مع كتلة هذه الأجسام وتتناسب عكسيًا مع مربع المسافة بينهما.

وبالطبع يعتبر تفسير ممتاز، وأغلب المفكرين بالطريقة التقليدية يمكنهم اعتماد هذا المبدأ الذي يتكون من (جسم أول يمكن رؤيته بالعين – جسم ثاني يمكن رؤيته بالعين – قوة جذب بينهم يمكن رؤية أو اختبار تأثيرها)، وأي محاولة لتطوير هذه النظرية ستسير حتمًا في نفس السياق، وقبل أن نعرف تفسير أينشتاين عن هذه النظرية، فلنسأل سؤالًا، هل يمكن لأحد



يدرس خواص المواد ويعتمد مبادئ نيوتن في الجذب أن يتخيل وجود مبادئ أخرى مختلفة لا تتضمن قوة جذب أصلًا؟ أو مثلًا يمكنه أن يتخيل وجود نسيج كوني رباعي الأبعاد يتحكم في قوى الجذب بين الأجسام ؟ وبالرغم من عدم وجود أي معطيات تشير بهذه التفاسير إلّا أن أينشتاين قام بتقديم نظرية مختلفة واعتبرها نظرية بديلة للجاذبية

عن نظرية نيوتن وذلك كان في بدايات القرن العشرين، وكانت جزءًا أساسيًا في نظريته "النسبية العامة"، وقدمت هذه النظرية تفسيرًا مخالفًا تماما لتطبيق نيوتن عن الجاذبية. فلم يعترف أينشتاين أن الجاذبية قوة كما اعتبرها نيوتن، بل افترض أنها رد فعل يحدث نتيجة اضطراب أو تشوه (distortion) في كيان ما اطلق عليه (Space-time) أو بالعربية الزمكان! افترض أينشتاين جميع هذه الافتراضات النظرية التي اصبحت ذات قوة تفسيرية عالية على ظواهرها وأثبت الكثير منها عمليًا وعلميًا لاحقًا، وأثناء افتراضه لها لم يكن لها أي مقدمات أو معطيات تفيد بوجود هذه النتائج أو افتراضها حتى، وكأن شخص يفترض أن الأرض لا تدور حول نفسها بل الفضاء المحيط بها هو ما يدور حولها كاملًا بكل ما يحتويه، لذلك فإن أي جسم راصد سيخرج من الأرض للفضاء أصبح ضمن المحيط الخارجي ويدور بسرعته لذلك سيقوم برصد الأرض على أنها هي التي تتحرك، هذه نظرية فلسفية ساذجة قمت بتأليفها الآن خارج سياق النظريات التفسيرية المألوفة لظاهرة دوران الأرض

والأفلاك وبالفعل هي صحيحة لأن الأرض تدور حول الشمس بالنسبة للشمس والشمس تدور حولها بالنسبة لها، ولكل شئ يوجد عدد هائل من التفسيرات التي **تعتبر جميعها صحيحة في حالة ما!**

حياتنا اليومية (تدريب على تغيير نمطية التفكير)

حياتنا اليومية تمتلئ بالتفسيرات والافتراضات والنتائج والتحليلات، هل يستطيع العقل أن يتم ترويضه تدريجيًا وتدريبه على التفكير خارج نمطيته أولًا؟ هل يمكن للعقل أن يصل لمرحلة أنه بمجرد قراءة المتسلسلة ١,٢,٤,٨ يستطيع من البداية فهم أن هناك عددًا لا نهائيًا من الحلول ويقول أن "كل الإجابات صحيحة"؟ أو حتى على الأقل يقول أن الإجابة هي ١٥ بدلًا من ١٦ ويكون احتمال الـ ١٦ لديه هو الاحتمال الأبعد؟ أنا شخصيًا أعتقد أن كثرة التدريب على مواقف مشابهة والتعرض للكثير من المواقف التي يتم إخضاع العقل فيها لمعطيات جديدة كليًا ستجعله تلقائيًا يتوقع نتائجًا جديدة كليًا، فمثلًا استمرار طرح اسئلة غير منطقية أصلًا على العقل تجعله يتوقع الإجابات الغير منطقية في نفس سياق السؤال.

إذا طرحت على عقلك يوميًا عددًا من الأحجيات والاسئلة التي لا يفهمها أصلًا وطلبت منه إجبارًا على أن يبحث عن

إجابة ستجده تلقائيًا يفتش في مناطق من دماغك لم تعلم أنها كانت موجودة أصلًا.

اسأل نفسك مثلًا

ماذا إذا كان الأصل في الكون هو الضوء والذي نراه هو سرعة الظلام وليست سرعة الضوء، وسرعة الظلام تعتبر سرعة مضادة للضوء تكبحه؟ ما النتائج التي يمكن ان نصل لها؟ هل مثلًا من الممكن ان يقودنا مثل هذا التفكير للتفتيش عن ابتكارات جديدة تتضمن أولوية بحثية عن الظلام وليس الضوء؟

هل يمكن أن يكون هناك محرك أبدي الحركة يستطيع توليد الطاقة بشكل مستمر ولا ينفذ أبدًا؟ كيف يمكن أن يعمل هذا المحرك؟ وهل إذا ولّدنا طاقة أبدية التوليد سيخالف ذلك فيزياء الأرض وقد يتطور الأمر أن تنتهي الحياة بأكملها!

إذا كان هناك شخص لا يرى؟ هل يستطيع العِلم أن يقوم بتصميم جهاز يترجم الصورة التي أمام الشخص إلى إشارات عصبية مشابهة لإشارات العين ويستطيع الكفيف الرؤية تمامًا كالحقيقة عن طريق كاميرا! (بالفعل هذه التقنية تحت الاختبار)

لماذا كل اللغات في العالم تمتلك نفس المصطلحات ولكن بحروف وأصوات مختلفة بالرغم من تباعد الثقافات واختلافها حتى المنعزلة تمامًا منها لها نفس الأسس؟ وكيف اتفق كل البشر على أن يطلقوا على كل شيء اسم ما مثلًا؟ وكيف أن هناك كلمات تنسب إلى كلمات أخرى هي نفسها في لغات كثيرة؟ مثل " برتقالة – برتقالي " و **Orange juice & orange color**؟ بالرغم من أن هذه الكلمات غير متقابلة إطلاقًا لا في النطق ولا الصوت ولا الحروف من ما يعني أنها لم تكن منقولة من ثقافات أخرى!

هل سألت نفسك ابداً كيف أِبتُكِرت اغلب الاختراعات الموجودة حالياً، هل فكّرت أن اغلبها لم يكن ابداً ابتكاراً

جذرياً اصلاً، فالعقل البشري على مدار القرون السابقة ومنذ بداية الخليقة كان دائماً - في أبهى ابتكاراته – يقتبس من ما يختبره مسبقاً، فقد اخترع الإنسان الطائرة بعدما اختبر الطيور تحلّق، واخترع الغواصة بعدما اختبر الأسماك تسبح وتغوص، حتى الكهرباء بدأ العالَم اكتشافها عندما بدأ العالِم الأمريكي بنجامين فرانكلين في عام ١٧٥٢م في استكشاف ماهية البرق الكهربية، وأغلب الابتكارات البشرية هي محاكاة لأصول مخلوقة بالفعل في الكون بصورة واضحة أو طويّة، وتعرف الآن هذه المحاكاة بمصطلح علمي وهو "biomimicry design " ولكن نعود مرة أخرى لنفس النقطة، وهي أن العقل البشري حتى في ذروة لمعانه كان ومازال يقتبس اغلب ابتكاراته من مخلوقات سواه .. فهل يمكننا كسر هذا القالب بشراسة؟ وتغيير اتجاه سير عقولنا إلى ابتكارات جذرية لا تخضع للمحاكاة بأي صورة كانت؟ ماذا يمكن ان نبتكر إذا حدث ذلك؟ ماذا يوجد ... خارج الصندوق؟

عصف ذهني غريب (الأعداد)!

بنفس طريقة التفكير السابقة! وهي الخروج تمامًا عن المألوف والمعهود ونقد الأسس العلمية التقليدية أو النظريات الفلسفية للوصول إلى أسس جديدة ربما تصل إلى نتائج مختلفة، سألت نفسي قبلًا كيف اتفق كل البشر على وجود نظام للعد يتضمن أرقامًا ١ و٢ و٣؟ بأي لغة كانت وبأي رمز أو شكل كان ولكن في النهاية هي نظام عد يتضمن " أبجدية الأعداد "؟ وبالتأكيد فإن هذا الاتفاق في اختيار نظم العد في شتى أنحاء العالم جاء لأن الدماغ أصلًا نمطيته تتضمن التفكير المتسلسل والمرتب بمنطقه والذي كوّن منه نظام عد واحدًا لم يتغير أبدًا، ولم يلعب التوارث في ذلك كثيرًا لأن الإنسان وإن ورث طريقة العد يمكنه تغييرها إذا لم تلائمه أو لم يجد فيها تلبية لحاجته ولكن لا يوجد إنسان رفض هذه المنظومة قبلًا وهذا بسبب وحدة المنطق الذي تتعامل به كل العقول على مر الأزمنة وليست الثقافات في زمن واحد فقط،

هل نستطيع الآن بعد معرفة ليونة العقل البشري إيجاد انظمة عد أخرى لا تتضمن أعدادًا أصلًا ولا تنتسب للأعداد؟، فإذا سمينا هذا النظام الجديد المجهول مثلًا النظام ألفا ALPHA، وافترضنا أن هذا النظام ليس له اي أسس أو تنسيب عددي أو رقمي ولكنه نظام استطاع الإنسان تطويره ليتم استبداله بالأعداد في العمليات الفيزيائية والرياضية والهندسية، وإجراء بعض التعديلات التحويلية تدريجيًا في الأنظمة النظرية الفيزيائية لتلائم النظام ألفا! أنا أعلم أن الكثير لن يستطيع فهم أو تخيل معنى وجود نظام مختلف عن الأعداد وذلك لأن عقولنا غير مؤهلة لاستيعاب مثل هذه الأفكار، ولكن بالرغم من ذلك فإن عقولنا طيّعة يمكنها تقبل فكرة الخروج عن الصندوق تدريجيًا، فهل يمكن عن طريق خطوات وتجارب تدريجية إنشاء منظومات متعددة ومختلفة فعلًا عن الأعداد تشبه النظام ألفا؟ وتعتَبَر هذه الأنظمة خوارزميات مختلفة وجديدة لا تشبه خوارزمية العقل النمطية في التفكير بنظام العَد؟ هل يمكن لاكتشاف نظام مثل ألفا أن يخلق فيزياء أو علومًا جديدة كليًا؟ هل

يمكن لهذا النظام أن يجعل عقولنا **تعيد تفسير الكون وفقًا لقواعد جديدة** كليًا يمكنها أن تؤدي إلى **نتائج جديدة كليًا أيضًا واكتشافات لم يصل لها العلم من قبل؟** ولكن كيف يمكن تدريب العقل او إدراج خوارزمية مثل " ألفا " عليه ليستطيع التعامل معها أو بها أصلًا حتى وإن كان ذلك على إنسان واحد أو مجموعة قليلة من البشر؟ هل يمكن أن تصبح هذه الفكرة الفلسفية حقيقة في يوم ما؟

(ملاحظة : النظام ألفا هو نظام وهمي وهو مجرد اسم أطلقه مؤلف الكتاب كناية عن منظومة علمية مختلفة عن الأرقام ونظم العد التقليدية ويمكن أن تستبدلها)

لنعد هنا ونسأل نفس السؤال الحائر

هل يتقبل العقل إحداث تغييرات عليه فعلًا؟ وإذا كان يتقبل، فما مدى هذا التقبل؟ وإلى ماذا يمكن أن نصل إذا احدثنا تغيير فعلًا؟ هل يمكنه أن يفعل ذلك بنفسه على نفسه؟ فمثلًا، هل يمكن بالتدريب الطويل والملائم أن يستطيع العقل البشري كسر حواجز التفكير النمطي وتوقع

الحلول المستحيلة أو اللا نهائية منذ بداية المشكلة او الفكرة؟ إذًا هل يستطيع العقل البشري بالتمرين والوقت أن يخترق نفسه ويذهب حيث لم يفكر من قبل، هل يمكن للدماغ أن يتنبأ تدريجيًا بالمُستبعدَات التي لم يتنبأ بها قبلًا؟ وهل يمكنه ان يخلق علومًا جذرية جديدة إذا حل واستبدلَ أسس بعض العلوم الحالية بأسس مختلفة وجديدة؟ وإلى أين يمكن أن يقودنا العِلم؟

في بداية الكتاب تحدثت كثيرًا عن الفلسفة ومعناها وأهميتها وكيف أن كلنا فلاسفة، وتعمدت ذِكر تجربة أينشتاين مع النسبية والفلسفة وأن أصل إلهامه في النظرية النسبية كان كتابات هيوم، فهذا هو نفس المبدأ والمنطلق الذي تسير به تفاسير العلاقات بين الفلسفة والعلوم التجريبية مثل الفيزياء أو علم النفس أو الأعصاب أو غيرها، وكما ذكرنا أن الأصل في النسبية هي فلسفة عن النسبة كما كانت جميع النظريات في بداياتها مجرد فرضية سواء أثبتت أو لا، حيث قال أينشتاين:

"من المحتمل جدًا أن دون هذه الدراسات الفلسفية لم يكن ليسعني القول إنه يمكنني التوصل إلى حل"، كذلك جميع الابتكارات والاختراعات الموجودة حالياً لم تكن يومًا إلّا فلسفة، الطائرة كانت يومًا ما فلسفة عن الطيران، والهاتف كان فلسفة عن التخاطر والتواصل، وجميعُ المشهودات الحالية لم تكن في وقت ما إلّا فلسفات.

لذا فإن جميع الأسئلة والافتراضات السابقة من إضافة خوارزميات وتفكير وغيره ما هي إلا افتراضات فلسفية

يمكن أن يكون لها مستقبل تطبيقي أو أنها ستظل محض نظريات للأبد! ولكن في النهاية هي افتراضات ساهمت في العصف الذهني المطلوب والخروج عن الصندوق النمطي في التفكير.

الباب الثاني

الفصل الرابع

(قصص حقيقية – منظور الشخص الثالث)

الآن وبعد قراءتك في الفصول السابقة، أصبحت بالتأكيد تتوقع أن نمط تفكير عقولنا بشكل يومي هو نمط محصور في المعطيات التي يراها أو يلمسها أو يدركها فقط بإحدى حواسه أو يختبر نتائجها، كما أنه يفكر بطريقة " الافتراض لملء الفراغات " بشكل مستمر، ولا يستطيع أيضًا توقع أي شيء لا يختبر منه مقدمة أو مُعطى، كما أنه حتى وإن اختبر المقدمة أو المعطى فسوف يسير حتمًا في النطاق التقليدي فقط لتوقع النتائج أو - أكثر ما يمكنه ممارسته- محاولة التفكير في حل ثانٍ أو ثالث بالرغم من وجود عدد لا نهائي دائمًا من الحلول!

المواقف التالي ذكرها، هي مواقف حقيقية حدثت لأشخاص حقيقيين وقاموا بسردها في حوار شخصي معهم ونُشِرَت بعد موافقتهم على كتابة هذه المواقف في مؤلَف أدبي، لقد قمت بصياغة قصصهم بتصرف وذلك لمنع كشف هوياتهم بناءً على رغباتهم الشخصية، والأسماء المذكورة في هذه المواقف هي أسماء مستعارة وغير حقيقية ولكنها فقط ترمز لأصحاب هذه القصص .

من يُخطئ في العمل يحظ بوظيفة في أوروبا!

كريم هو كيميائي حديث التخرج من كلية العلوم، لم يستطع أن يجد وظيفة ملائمة في بداية حياته، كلما تقدم إلى وظيفة كانت سيرته الذاتية تقابَل بالرفض وذلك لأنه لا يمتلك أي خبرات، لم يكن أمامه أي حل سوى أن يتقدم كمتوطع في احدى الشركات الكبرى بأجر رمزي والعمل مقابل الخبرة لعدة أشهر، وفوجئ بأن وظيفته ستكون فقط الرد على العملاء على صفحة الشركة بمواقع التواصل الاجتماعي! وأن هذه هي الوظيفة الوحيدة الخالية له إذا كان يريد العمل في هذه الشركة فعلًا كمتطوع، وأثناء ممارسته لعمله بشكل طبيعي سأله أحد العملاء على الصفحة في تفاصيل لا يجب أن يتم التصريح عنها على الملأ ولكن ليعرفها العميل يجب عليه أن يذهب لفرع الشركة أو يتصل بخدمة العملاء وأن هذه المعلومات لا يتم تبادلها على صفحات التواصل الاجتماعي على الرغم من كونها معلومات بسيطة لكنها بروتوكولات تتبعها الشركة، ولكن كريم لم يكن يعلم أن هذه المعلومات تحديدًا لا يمكن مشاركتها مع

العامة على الصفحات، وتطوع للرد على سؤال العميل – يقول كريم أنه كان يريد مساعدته ولم يقصد إطلاقًا أن يخترق البروتوكولات ولكن كان محركه الرئيسي في ذلك أن يساعد العميل بدون الحاجة لاتصال هاتفي-، ومرت عدة أيام ولم يلاحظ كريم إطلاقًا الخطأ الذي ارتكبه، ليفاجأ لاحقًا باتصال هاتفي من رقم مدير الشركة بنفسه!

يقول كريم " كنت متوتر جدًا لأن المدير مش بيتصل بحد في المكتب أبدًا بشكل شخصي! وأصلًا المدير ما يعرفنيش وما أعرفش لحد دلوقتي طلب يجيبني إزاي او عرف منين إن أنا اللي رديت على العميل !"

وعندما أجاب كريم على الهاتف إذا بالمدير يخبره بشكل مقتضب "عايزك بكرة في المكتب الساعة ٩ الصبح وما تتأخرش عشان عندي مقابلة تانية بعدك "

يقول كريم عن هذا الموقف "حسيت وقتها بكمية توتر كبيرة جدًا لإني ما كنتش أعرف إن أنا عملت مشكلة أصلًا! وفضلت طول الليل أتصل بزمايلي أسألهم ممكن يكون المدير عايزني ليه!"

لم ينم كريم تقريبًا هذه الليلة وفي الصباح كان يقف أمام مكتب المدير من الساعة الثامنة، إلى أن حان موعد مقابلته، يذكر كريم ما دار بينهما

- " بصراحة يا كريم أنا هنا بعتبر كل الموظفين زي ولادي، وانت عملت خطأ ولكن مش هحاسبك عليه، أنا مش بتصل بحد بشكل شخصي، بس لما شوفت الرد بتاعك على العميل وسألت عنك قالوا إنك شاب مجتهد وشاطر في شغلك جدًا وكمان بتتعلم لغات وبتعرف تتكلم أسباني وإنجليزي وصيني وفعلًا أنا مش عارف إيه وجه الشبه بين الثلاث لغات بس كان عندي فضول أقابلك، أنا استغربت من شهادة زمايلك عنك إنك تعمل غلطة زي دي، عمومًا أنا طلبت أقابلك عشان أفهمك الغلط اللي عملته ببساطة وأنا بعتبرك ابني، وفي مهمة كدا عايزك تعملها وهديك عليها أجر كويس، في كتاب ثمين جدًا وصلي شخصيًا من حوالي اسبوع، هو مش كتاب كبير تقريبًا ٥٠ ورقة، الكتاب دا للأسف لغته بالأسباني، وكنت محتاج مترجم يكون بيفهم في الأمور

الكيميائية عشان يترجم من الاسباني للعربي ونقدر نوزع الكتاب في الشركة على الموظفين، شوف ياخد في إيدك وقت قد إيه عشان مستعجل عليه بشكل شخصي وطالما عندنا حد يعمل الشغل دا، نوديه برة ليه؟ .. "

- يقول كريم " كنت مندهش جدًا إن غلطة عملتها تخلي المدير بنفسه يعرفني ويعرف إمكانياتي وكمان يكون في كتاب بالأسباني عايزني اترجمه! توقعت وقتها إن المدير ممكن يثبتني في الشركة أو يلاقيلي وظيفة كبيرة او مناسبة فيها، ونمت يومها على الأمل دا "

ظل كريم لأيامٍ يحاول ترجمة هذا الكتاب بشكل احترافي وبالفعل أتم الترجمة على أكمل وجه وجاءت له فكرة بأن يكتب ملخصًا عن الكتاب باللغة الاسبانية ويترجمه للعربية ويرفقه مع الكتاب المترجم، وبالفعل استطاع ترتيب موعد آخر مع المدير لتسليمه الكتاب، وكان ذلك في شهر يناير من عام ٢٠١٨، وكان سعيدًا جدًا انه سيقابل المدير مرة أخرى بهذا العمل الناجح من الترجمة، وطرق باب المكتب ودخل!

وإذا به يفاجأ بالأستاذ "أحمد"رئيس احد الأقسام يجلس بجوار المكتب ومقعد المدير فارغ! فسأله كريم عن المدير، فقال له الأستاذ "أحمد" أن المدير وقع له حادث اثناء القدوم للشركة ولا يمكنه الحضور اليوم! ولكنه اتصل بي وأوصاني بأن أستلم منك الكتاب المترجم وأن اشرف على مهامه مؤقتًا لحين عودته إن شاء الله ..!

قام كريم بتسليم الكتاب الأصلي والكتاب المترجم للأستاذ "أحمد"ومعهم الورقة التي بها ملخص الكتاب بالإسبانية والعربية، فأمسك الأستاذ "أحمد"بالورقة وسأله ما هذه الورقة بالإسبانية؟، فأخبره كريم أنه ملخص الكتاب لأنه استمتع بقرائته فقام بتلخيصه لعل شخص يستفيد من هذا الملخص، فقال له الأستاذ "أحمد"ان هذا الملخص رائع فعلًا وشكره على ذلك.

قال كريم وهو يحكي هذا الموقف

" كل اللي فاكره إني كنت محبط جدًا، حتى اليوم اللي رحت أقابل المدير فيه وأنا عامل إنجاز المدير ما شافنيش أصلًا ولا هيفتكرني بعد كدا .. بس اتبسطت لما استاذ أحمد عجبه

الملخص مع إن للأسف استاذ أحمد مجرد رئيس قسم مش هيفيدني في حاجة ولا يقدر يعينني في الشركة، كنت اتمنى اني اسلم الكتاب للمدير بنفسي بس النصيب .. "

مرت الأيام وأنهى كريم فترة تدريبه في الشركة، وذهب إلى مسؤول الموارد البشرية ليتحصل على أتعابه عن فترة التدريب، فأخبره المسؤول أنه يريد التحدث إليه لبعض الوقت وأن يعود إليه مرة أخرى عند انتهاء دوام العمل، عند ذكر كريم لهذه اللحظة أثناء الحوار معه قال لي " بصراحة وقتها كل اللي جه في بالي أن المدير اكيد وصّى عليا إني اتعين في الشركة والإتش آر لما لقاني رحت المكتب عشان اخلص اوراقي وامشي افتكر ان المدير وصى عليا وراح يتإكد منه هتعين فين في الشركة عشان كدا قالي تعالى بعد ما تخلص، قولت وقتها ياه معقول يكون الرد الخطأ اللي أنا عملته في البداية على صفحة الشركة يخلي المدير يعرفني ويوصي عليا عشان أشتغل في الشركة! قد ايه الدنيا غريبة! "

وبالتأكيد أي شخص مكان كريم كان سيفكر بنفس طريقته المنطقية لأن كل المعطيات أمامه تشير إلى أن كريم

سيكون له مستقبل باهر في الشركة وأن مع هذا الانقلاب الغير متوقَع في الأحداث سيحدث له أمر عظيم وسيأتي بأخبار سعيدة! كان كريم يفكر في الأحداث كمعطيات ونتائج متسلسلة ومرتبة، فمثلًا من المستحيل أبدًا في هذه اللحظة أن يتوقع عقل كريم بأنه قد يسافر محافظة أخرى يعمل فيها بفضل الخطأ الذي ارتكبه بالرغم من ان الشركة لا تمتلك فروعًا في محافظات أخرى!! ومن المستحيل على عقل كريم في هذه اللحظة أن يتوقع أنه سيحصل على جائزة دولية في الكيمياء بفضل الخطأ الذي ارتكبه! في حين أنه أصلًا لم يكتب أبدًا ورقة بحثية علمية بمفرده! – فعليًا كريم لم يفعل هذه الأشياء بعد ذلك ولكنها مجرد امثلة - لا يمكن لعقل كريم في هذه اللحظة أن يتنبأ بأكثر من النتائج التي لها معطيات فعلًا وسيكون لهذا تأثير قوي على كريم بعد قليل ...

انتهى اليوم فعلًا وكان كريم متحمسًا جدًا لزيارة مسؤول الموارد البشرية وسماع خبر تعيينه، وبعدما جلس قال له

المسؤول " إزيك يا كريم، بنتمنى ان الفترة اللي اشتغلتها معانا تكون اتبسطت فيها، دا المبلغ اللي المدير كان اتفق معاك عليه، أنا اخرتك شوية عشان رحتله المكتب اسأله هو هيحاسبك على كام بالظبط بخصوص ترجمة الكتاب، شرفتنا يا كريم وشكرًا إنك مسكت الصفحة مكان سالي الفترة اللي فاتت هي رجعت من أجازة الوضع الحمد لله وهتقدر تكمل شغلها، بنتمنى ليك حظ سعيد وموفق في مكان كويس"

خرج كريم من اللقاء والصدمة تملؤه، وأيضًا كان كارهًا لعقله الذي قرأ الأحداث لصالحه وكالعادة قام عقل كريم بهوايته المفضلة "الافتراض لملء الفراغات" وافترض أن مسؤول الموارد البشرية ذهب للمدير ليستعلم عن راتب كريم الجديد ووظيفته التي سيحصل عليها، وافترض أصلًا انه ذهب للمدير بالرغم من أن مسؤول الموارد البشرية لم يقل له انه سيغادر المكتب حتّى!! وترجم عقل كريم

المعطيات والافتراضات على انها ستكون سببًا في نتائج جيدة! في حين ان ما حدث كان مختلفًا عن توقعاته.

قال كريم عن هذه اللحظة

"أكتر حاجة فاكرها في اللحظة اللي أخدت فيها مبلغ انهاء الخدمة إني كنت متعشم زيادة عن اللزوم، في اللحظة دي بصراحة أنا كان مستقبلي قدامي صحراء جرداء، أنا واحد كل خسر كل اللي تعب فيه شهور في الشركة وحتى المبلغ اللي أخدته كان بسيط جدًا لإني كنت متدرب مش أكتر، حسيت إني لسة ببدأ طريقي من الصفر تاني، الشركة اللي اشتغلت فيها وحبيتها استغنت عني في ثانية، وكل توقعاتي بناءً على المعطيات اللي قدامي وإن الناس دي بتحبني وبتقول فيا شعر عني وعن شغلي وكفائتي كله طلع غلط وملهوش لازمة ولا قيمة، وآديني انهردا بسيب الشركة وببدأ تاني من الصفر، كانت لحظة صعبة ووحشة جدًا ومحبطة وروّحت البيت يومها كنت بعيط بجد شبه الأطفال، والدتي كانت مريضة وما كنتش لاقي فلوس اصرف عليها لإن يدوب مرتب ابويا كان بيكفينا بالعافية، مقدرتش يومها أقول مفيش

راجل بيعيط بس كان صعب عليا اوي فكرة إن يتقالي شكرًا بعد كل التعب دا وبعد ما اثبتت كفائتي! كنت محتاج الفلوس في الوقت دا جدًا وفعلًا كل قرش كان بيفرق معايا، ما كنتش قادر أفهم إزاي كل يوم كان شخص في الشركة بيشيد بيا وبآدائي والمدير نفسه كان مبسوط بيا وتكون دي النهاية! الأيام فضلت تعدي عليا بعدها مظلمة جدًا وفات شهور حرفيًا وأنا ما عرفتش اشتغل وكل الوظايف كانت بترفضني، الحاجة الوحيدة اللي كنت بفكر فيها هو إن دلوقتي أنا أسبابي صِفر، وحرفيًا مفيش أي حاجة أعملها، مفيش ولا معطى قدامي بيقول إنّي ممكن اشتغل، كل الشركات بترفضني حتى الشركات الصغيرة مع إن السي في بتاعي كان كويس جدًا ولحد دلوقتي معرفش كنت بترفض ليه! قدمت في أكتر من ١٥ شركة كلهم رفضوني والفلوس اللي اخدتها من الشركة الأولى خلصت أصلًا بعد اسبوعين، حرفيًا دماغي وقتها كان بيقولي خلاص .. في إيه تاني ممكن تعمله؟ شركات وقدمت، انترفيو وحضرت، كورسات واخدت، تدريب ونزلت، أسبابك كلها خلصت ومفيش ولا

معطى واحد قدامك بيقول انك ممكن تشتغل على الأقل دلوقتي .. ولو اشتغلت حتى هيبقى اكيد في وظيفة ضعيفة... مستقبلك مجهول! "

قال كريم أنه في هذه الفترة بالرغم من كل إحباطه دائمًا رددَ

﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧]

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾[1]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[2]

---

١ الطلاق: ١.

٢ آل عمران: ٢٠٠.

بعد مرور أشهر، تقريبًا خلال شهر يونيو, ضرب جرس هاتف كريم بمكالمة من رقم لا يعلمه، وعندما أجاب على الهاتف رد عليه رجل قائلًا " صباح الخير ازيك يا كريم، معاك أستاذ أحمد من الشركة اللي كنت شغال فيها .. فاكرني؟ "

أجابه كريم أنه بالطبع يتذكره، هذا هو الرجل الذي استلم منه الكتاب الملخص عندما تعرض المدير لحادث! والذي تابَع له قائلًا

" بص يا كريم أنا في حد صديق ليا شغال في مشروع بحثي كيميائي وفي تعاون مع فريق أسباني، وصديقي الباحث دا سألني لو في حد عندنا في الشركة ممكن يساعده، أنا عارف انك سبتنا من شهور بس أنت الوحيد اللي جيت في بالي، ومن المفارقات الغريبة إنه طلب مني يكون حد بيعرف يلخص كويس لأنهم محتاجين حد يلخص لهم مؤلفات علمية اسبانية بالعربي عشان يقدروا يشتغلوا مع الفريق الاسباني، بص هو الفريق دا هيجي مصر اسبوع وبعد كدا إن شاء الله الفريق المصري هيسافر إسبانيا، هم متفقين إن البحث بتاعهم دا هيبقى حوالي سنة ونص أو سنتين

ومحتاجين مترجم يكون عنده خلفية علمية ويقدر يلخص لهم الكتب دي، فتمام معاك تقدر تسافر إسبانيا المدة دي ولا عندك اي مشكلة؟ عمومًا انت هناك ممكن تدور على شغل بعدها يعني ان شاء الله الموضوع يكون فاتحة خير عليك"

قال كريم في حواري معه أثناء تأليفي هذا الكتاب أنه عندما سمع من رئيس القسم بالمواصفات المطلوبة شعر بشلل في لسانه ولم يكن يعرف كيف سيجيبه بالموافقة حتى! فهو يشعر بخدر في جميع أنحاء جسده ولا يستطيع أن يصدق ما تسمعه أذناه! عندما قابلنا كريم لنقوم بهذا اللقاء معه كان في أجازة مؤقتة لمدة اسبوع قبل سفره مرة أخرى لإسبانيا، وعندما حدثت كريم عن فكرة كتابي وهي أن الدماغ يسير فقط على النهج الذي يعرفه ويحلل النتائج بناء على المعطيات التي امامه فقط، أعجب كريم كثيرًا بفكرة الكتاب وقال لي " الفكرة دي فكرتني بنفسي جدًا، لما كنت محبط وقت ما مشيت من الشركة كان مستحيل تمامًا وقتها إني أتخيل إن في نفس الوقت دا في فريق بحث علمي في مكان

تاني بيتفاوض مع فريق بحث علمي في دولة تانية عشان ياخدوا مشروع لسة مجاش أصلًا أنا هبقى المترجِم فيه كمان كام شهر! كل دا كان بيحصل وأنا مكتئب في أوضتي! كان فيه أسباب بتتهيأ عشاني واليوم اللي حصلت فيه الحادثة مكانش صدفة، تخيلي فعلًا زي ما بتقولي إن وقت ما كنت محبط عشان مش لاقي شغل مستحيل دماغي أبدًا كان ممكن يتصور إن في فرصة بتتشكل وأنا معرفش عنها أي شيء، ما كانش في ولا دليل ولا معطى واحد ممكن دماغي يحاول يتنبأ منه أن هيكون في حاجة زي دي في يوم من الأيام، يوم ما استاذ "أحمد" كلمني بخصوص السفر افتكرت الآية " وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"، ربنا عنده معطيات وأسباب بيحطهالنا غير اللي احنا نعرفها تمامًا، وبتكون منطقية إنها هتجيب لينا نتايج عمرنا ما كنا نتخيلها بس بتكون منطقية من منظور الشخص التالت اللي بيشوف القصة من بعيد بكل تفاصيلها لكن مش منطقية للاعب من منظور الشخص الأول، اللي هو أنا ..! "

كان كريم أول شخص يلهمني مصطلح الشخص الثالث، الشخص الثالث مثل الكاميرا في ألعاب الفيديو والتي ترى جميع اللاعبين من منظور بعيد حتى البطل نفسه، نحن نرى مشاكلنا دائمًا من منظور الشخص الأول فنكون نحن أبطالها، ولا نستطيع رؤية الأحداث كاملة لذلك فإن ترجمة عقولنا للأحداث تكون عن طريق المعطيات القليلة التي نراها كشخص أول، فلا نستطيع ان نتوقع أو نتصور أي نتائج ليست لها مقدمات أو معطيات حالية!

بنفس المنطق .. كم مرة قلقت من حدوث شيء ما وعندما حدث وجدت أنه ليس بنفس السوء الذي تصورته! أو حتى أنه لم يحدث أصلًا!؟

عندما نخشى من حدوث شيء يقوم دماغنا تلقائيًا بتخيل جميع جوانبه السيئة والمخيفة كنتائج بناءً على المعطيات الموجودة حاليًا، فمثلًا إذا كان شخص ما قد يتعرض للإفلاس، فإن كل ما يفكر به أنه في حالة إفلاسه سيقوم البنك بالحجز على ممتلكاته أو يزج به في السجن ويشرّد أهله .. إلخ إلخ، ولكننا لا نستطيع أن نتخيل

سيناريوهات موازية ليست لها أي مقدمات أو مُعطيات حالية! فهذا الشخص عندما تعرض للإفلاس فعلًا، عاد ابنه المسافر من الخارج بثروة لم يكن يعلم والده عنها شيئًا وغطّى أغلب ديونه، وكان الرجل في ذلك الوقت له وظيفه مؤقته استطاع منها تغطية باقي الديون، حين فكّر الرجل في إفلاسه كان يرى فقط نتائج المعطيات الحالية ولم يفكر إطلاقًا في أي نتيجة ليست لها معطى حالي! لذلك فإن الله يؤكد على المؤمنين دائمًا ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾ [يوسف: ٨٧]، لأن **اليأس هو تسليم بأنه لا توجد أي نتائج سوى للمعطيات الحالية أو الملموسة فقط! في حين أن الله يمتلك كل أسباب الكون وكل شيء في ملكه يتحكم به كيف يشاء.**

مشكلة الإنسان فعلًا أنه يسلّم فقط بما يرى أنه نتيجة حتمية للمعطيات الراهنة التي يمكنه فقط اختبارها بحواسه أو اختبار إحدى اماراتها، حتّى أنت أيها القارئ العزيز إذا اخبرتك اليوم أنك ستصبح غدًا مليونيرًا فلن تصدقني لأنه لا يوجد سبب أو مقدمة يمكنك منها التنبؤ أنك ستصبح

مليونيرًا غدًا! بالرغم من أنه شيء غير مستحيل، ففعليًا الكثير مِن مَن أصبحوا مليونيرات استيقظوا على خبر ميراث من شخص لم يعرفوا أنه في العائلة أصلًا! أو فازوا في مسابقة نسوها، أو حتّى اضطروا فجأة للاقتراض من البنوك ولكن في النهاية أصبحوا من أصحاب الملايين!

في المواقف الحالِكة مثل الخسارة أو فقدان الأشياء العزيزة، وفي لحظات الفشل أو الإخفاق أو انقطاع الأمل، يكون من الصعب جدًا على العقل تقبل أي فكرة إيجابية لا يوجد لها دليل أو سبب أو مقدمة ملموسة، وكل ما يفكر فيه العقل فقط حينها هو الخسارة التي تعرض لها، ويكون المسار الطبيعي والمنطقي له أن يتوقف عن مطاردة هدفه ويسكن ليعيد ترميم ذاته المنهكة في الخسائر، حينها لا يستطيع التفكير إلّا في أن جميع الأسباب انقطعت وأنه امام حائط مسدود، كم مرة كررت " خلاص، هعمل ايه يعني؟ " – " أنا تعبت، كفاية كدا " – " أنا زهقت من كل حاجة " – " وآخرتها إيه يعني! " – " بلف في دايرة مقفولة " – " طاقتي خلصت " – " خلاص ملهاش حل " – " الموضوع منتهي "

- " كل حاجة باظت " - " تعبي كله راح " .. كلها كلمات جميعنا رددها في وقت من الأوقات حتى وإن لم يلفظها ولكنه رددها بداخله، وذلك نتيجة لتفسير عقله بقصور أن فعلًا انتهت كل الأسباب التي يمكنه أن يسلكها أو حتى الأسباب التي لن يسكلها بنفسه ولكنها تحدث من تلقاء نفسها أو من اشخاص أخرين! المهم ان كل الاسباب انتهت، هنا يشعر أن كل شيء يتآمر عليه سواء كانت خطواته نفسه أو خطوات الأخرين أو الأسباب أو النتائج أو المعطيات وكأن كل شيء فشل، **وعندما تصبح كل المعطيات الملموسة أو الراهنة تؤدي إلى نفس النتيجة المنطقية (اللا شيء) يُشَل العقل عن التفكير تمامًا ويضع صاحبه أمام فِكرة واحدة وهي أن كل شيء انتهى ولن يوجد حل أبدًا.**

بالرغم من أن الذي انتهى فعلًا هو نسبة واحد على المليارات من الاحتمالات في الكون (وهي النسبة التي يستطيع العقل تفسيرها بناء على المعطيات التي أمامه)، ومازال هناك المليارات من الاحتمالات الأخرى التي لا يرى هو أسبابها!

فتخيّل أيها القارئ العزيز، أنك من بين المليارات من الاحتمالات في الكون يحدث معك شيء واحد في كل موقف؟ هل رأيت أبدًا شخصًا يحدث معه فعلان أو ردان فعل في موقف واحد؟ فمثلًا إذا كنت تبحث عن ماكينة صراف آلي، هل قمت بالسحب من ماكينتين في نفس الوقت من قبل؟ تخيّل عدد ماكينات الصراف الآلي الموجودة في العالم أو على الأقل الموجودة في شارعك! تخيل عدد الساعات والدقائق والثواني في اليوم التي كان من الممكن أن تذهب فيها لماكينة صراف آلي؟ هل ذهبت من قبل للماكينة لأداء نفس الشيء في أوقات مختلفة من يوم واحد؟ هل مثلًا ذهبت لماكينة محددة لسحب مبلغ بهدف شراء هاتف جديد هو نفسه مرتين في نفس اليوم؟ فتخيل أن كل هذه الاحداث والاحتمالات لأن تذهب لماكينة معينة من بين كل الماكينات في دقيقة معينة من بين كل هذه الدقائق لهدف معين من بين كل الأهداف هو عدد هائل من الاحتمالات، ولكن ما يحدث معك هو احتمال واحد فقط في كل منهم، وعليه يترتب احتمال واحد فقط لشخص آخر سيستخدم الماكينة

بعدك ويقف منتظرًا لك أن تنتهي من عمليتك، وشخص آخر خلفه ينتظره وهو متأخر على وظيفته التي سيجازى فيها على هذا التأخير، ليحصل موظف آخر غيره على لقب موظف الشهر لأنه لم يتأخر في ذلك اليوم! وتأخذ زوجة الموظف المثالي مكافأته لتشتري بها علاجًا لطفلها المريض، ليأخذ صاحب الصيدلية ثمن العلاج مهاديًا به والدته القعيدة ويدخل السرور على قلبها، لو كان الإنسان مخيرًا بكامل حريته لاختيار الدقيقة والماكينة والهدف، لانتهى هذا التسلسل من البداية وحدث تسلسل غيره قد يغير في النهاية وجه الكون بأكمله! والإنسان فعلًا كان حرًا في سعيه في كل ما اختاره ولكن نتيجة هذا السعي تظهر في أقدار الله التي تسوق الإنسان إلى منفعة عامة وخاصة قد لا يلمسها المرء بنفسه، لو كان الإنسان يضرب في الأرض بمحض إرادته تحقيقاً فقط لرغباته، لبدت الحياة مثالية في تحقيق كل ما يتمناه المرء ولكن لَما كانت أبدًا الأحداث وقعت بالدقة الكونية المطلوبة، لذلك نحن نسأل الله دائمًا " اللهم خِرْ لي واختر لي ولا تكلني لنفسي طرفة عين"، فالله يرى ويعلم ما

لا نعلم ولأن المرء يرى فقط في كل شيء معطياته الشخصية أو الحدود التي يستطيع عقله إدراكها فقط، وهذه النظرية تم طرحها من قبل وسُميت بـ "نظرية الفراشة " والتي تفترض بأن تغيير جناح فراشة في شمال أفريقيا يمكن أن يسبب إعصارا في النصف الثاني من الكرة الأرضية.

إن مقاليد القدر في يد الله، الواحد الأحد الذي يقود الأحداث لتحدث كما هي عليه الآن، لتبدأ في كونٍ مخلوق بهذه الدقة البالغة وسوف ينتهي بنفس الدقة التي خُلِقَ بها بأمر الخالق وحده.

كان يظن كريم أن حادِث المدير هو واقعة عبثية وكأن الشؤم يطارده ولم يكن يعلم أن المدير لو كان موجودًا لما كان تعرّف أبدًا على رئيس القسم الآخر ولا حصل على وظيفته! كان يظن أنه عندما أخطأ سيعاقب وكل ما كان يوحي له عقله به " ياريتك ما رديت على العميل أحسن " ولم يكن يعلم أن خطأه سيكون بابًا لطريق آخر!

يقول كريم لي اليوم " كل حاجة بتحصل في الدنيا بيكون ليها هدف بس الإنسان بصيرته قصيرة جدًا، أقصى حاجة

يقدر يشوفها هي الحاجات اللي قدامه بس، حتى الحاجات اللي ورا ضهره بيفتكرها خلصت مع ان أثرها لسة موجود في مكان ما لحد دلوقتي، وفي احداث لسة بتلف العالم بسبب حاجات كنا فاكرينها انتهت! "

من السهل جدًا على الدماغ ترجمة أي حدث مكروه على أنه حدث عبثي أو شؤم، بالرغم من أن الكون لا يوجد به احداث عبثية، لا في خلقه، ولا في سيره، ولا في نهايته، حتى معضلة الشر التي تؤرق أذهان بعض المفكرين ما هي في النهاية إلا سبب في فناء الجزء للحفاظ على الكل، فلو لم يكن الموت موجودًا لكانت الحياة الآن على كوكب الأرض مستحيلة، لو لم يكن تحلل الجثث ببشاعته حقيقة، لكنا سنعيش الآن في كوكب من الجثث، لو لم تكن الأمراض حقيقة (ومنها الهِرم) لما كان الموت حقيقة وعدنا مرة أخرى إلى الكوكب الذي لا يمكن العيش عليه أبدًا! لو لم يكن الحزن حقيقة لكان الإنسان بحث عن مستويات أعلى من السعادة التي اعتادها ولم يعد يشعر بها أصلًا فجُنَ وخرج عن وعيه!

والأكبر والأهم من ذلك، لو لم يكن الشر موجودًا، ففيمَ كان سيُختَبَر الإنسان؟

المختصر .. أن هذا الكون بكل احداثه الدقيقة حتى جناح الفراشة وبكل الاحتمالات اللا نهائية لكل الأحداث هو كون متقن دقيق يسير وفق خطة إله قادر عالِم، فحين يعجز العقل عن إيجاد معطيات كافية لتؤدي إلى نتائج يريدها أو يتمناها يكون في الحقيقة هناك الملايين من المعطيات التي لا يراها يمكنها تحقيق هذه النتائج المرجوة أو توجيه المرء لوجهة أخرى اصلًا!

إن ترويض وتدريب العقل على هذا المبدأ يجعله في وضع تسليم دائم بأن كل ما يحدث صحيح، وأن هناك إجابات غير الإجابة المنطقية التقليدية، وأن الرقم الناقص في المتسلسلة ١,٢,٤,٨ يمكن ان يكون حتى مليونًا! وستكون الإجابة صحيحة! وأن الهدف الذي يسعى المرء إليه سيكون بمشيئة الله وحده، وإن نفذت كل أسبابه فهناك الملايين والمليارات من الأسباب لكن عقله لم يتداركها بعد! إن هذا التسليم يمكنه أن يحول لحظات الخسائر إلى نجاحات باهرة،

فدائمًا ينسحب ضِعاف الهمة عندما يشتد الظلام ويكون حالكًا فيظنون أنهم خاسرون لا محالة، بينما الفائز الوحيد هو الذي قطع أشواط الظلام الدامس لأنه متأكد أن الشروق لا يكون إلا بعدما يرتفع الليل بأقصى ظلامه، لو عَلِم كل شخص يئس في طريقٍ ما أنه قد كاد يصل لمات حسرَة على انسحابه قبل الفوز بلحظات، إن الذي يرى حلكة الظلام في الليل مُحال أن يتوقع نهارًا ليست له أي معطيات في جوف الليل! وأن هذا النهار سيزيل الظلام ولا يبقي منه نفحة! كنت أعلم أشخاصًا إذا اشتدت بهم المحنة يقولون " يلا هاتي آخرك عشان تُفرَجي " وكأنهم يعلمون عِلم اليقين أن الجوائز لا تُحصَدُ إلا بعد اختبار شاق، وما الاستحقاق إلّا بعد اختبارٍ حق في أشد ما يؤلِم المرء ويرهقه، ولا يستقصر المرء طريقًا ولا يستطوله، إنما هي اختبارات وكلٌ له مكافأته.

الباب الثاني

الفصل الخامس

(قصص حقيقية – المستحيل حدود يضعها عقلك)

هذه المرة القصة ليس بطلها شاب، ولكن فتاة ابنة الثامنة عشر فقط لا غير، مريم كانت وما زالت صديقتي وهي من الشخصيات العزيزة عليّ جدًا، وبالرغم من اني رافقتها طويلًا في قصتها إلّا أنها تعمدت في لقائنا أن تحكيها لي مرة أخرى ولكن بمشاعرها فيها.

عندما كنا في الجامعة وتحديدًا بعد نهاية العام الأول – العام الأول في كلية الهندسة هو دراسة عامة تتضمن مواد من جميع الأقسام – كان مطلوب من جميع الطلبة التقديم للتنسيق والالتحاق بالأقسام، في تلك الفترة كنا نمتلك تقريبًا عشرة أقسام مختلفة، لم اكن قريبة كثيرًا من مريم ولكن اتذكر كم كانت قلقة في تلك الفترة وعاجزة عن الاختيار

بالرغم من أن تقديرها في العام الأول كان يسمح لها بالإلتحاق بأي قسم تريده تقريبًا، التحقت أنا وهي بقسم الهندسة المعمارية وفي بداية العام الأول كنت أجدها دائمًا تجلس بجوار الحائط وأتذكر أني كثيرًا رأيتها تبكي، تغيّبت مريم لأسبوع في بداية الدراسة وعندما سألت عنها أخبرني بعض الزملاء أنها كانت تحاول تغيير القِسم وأنها لن تحضر مجددًا، بعد أسبوع آخر عادت مريم إلى مقعدها في القسم وكالعادة كانت كئيبة ويبدو على وجهها الحزن بشدة! انتابني الفضول أن أعرف ما حدث معها، فذهبت إليها وسألتها "ازيك يا مريم، أنا عرفت إنك كنتِ هتحولي من القسم، إيه اللي حصل ما حولتيش ليه؟"، ردت مريم " شكرًا لسؤال عليا، أنا حاولت بس للأسف باب التحويل كان قفل مع ان أول مرة يقفل بدري السنادي! كل سنة كان بيتأخر أكتر من كدا! الحمد لله "

مرّت الأيام وكنت أرى مريم دائمًا في حالة حزن، من المميز عن قسم العمارة أننا كثيرًا كنا نتعرض لحصص طويلة، فمثلًا من الممكن أن تصل الحصة إلى أربع أو خمس

ساعات، وفي أيام إنجاز المشروعات من الممكن أن تصل الحصة إلى ثمان وتسع وعشر ساعات متواصلة، خلالها لا نغادر صالة الرسم الهندسي إلّا لدقائق معدودة، وكانت الصالة الخاصة بالفرقة الأولى في الطابق الأخير تقريبًا ما يوازي ستة طوابق من مبانينا الحالية أو أكثر، وإذا حاول أي طالب النزول والصعود مرة أخرى كانت السلالم تمنعه لأنها كثيرة ومتعبة ومرتفعة للغاية، عندما كانت تحدثني مريم عن هذه الفترة في حياتها قالت لي " ما فيش فترة كرهتها في حياتي زي الفترة دي، تخيلي إنّي تحوّلت من إنسان ناجح، أوائل في ثانوية عامة وشخص جايب تقدير عالي في إعدادي هندسة، لشخص مش طايق إنه يعدي من باب الكلية، مش بس كنت بكره الدراسة في القسم أنا كان بدأ يخالطني شعور اني بكره الكلية والمباني والسلالم، تخيلي إنسان بيكره شوية سلالم! كنت بحس نفسي محبوسة في سجن، مجرد أني اطلع صالة الرسم كإن بالظبط حد دخلني زنزانة، والغريبة اني كنت بشوف كل زمايلي مبسوطين، ودا كان بيحسسني اني غريبة اكتر"

عندما كانت تقول لي مريم هذا الكلام لاحظت في عينيها بعض الدمعات، أتذكر جيدًا أني وضعت خطًا في مذكرتي التي أدون فيها قصتها، وكتبتُ جوار الخط " ألم شديد "، كنت أريد أن اصف كم الألم الذي كانت تمر به مريم، ولكن وجدت أن افضل طريقة أعبر بها عن ألمها هو ان أحكيه كما قصّته هي ..

" المشكلة إني كنت مضطرة أواجه المكان دا كل يوم، مضطرة اروح الكلية كل يوم، مضطرة أقعد هناك بالـ٨ ساعات كل يوم، مضطرة افضل في السجن اللي كنت حساه كل يوم! أنا عارفة إن دا كان احساسي أنا بس، وإن مفيش حد غيري في القِسم كان بيحس إنه في سجن، كنت كل يوم وكل لحظة بفكر إني احول من القسم واروح مكان تاني، حتى لو هتضيع عليا السنة مش مهم! بس كل اللي كنت عيزاه إني اسيب المكان اللي أذاني نفسيًا للدرجة دي، بصراحة أنا مش هقدر اقول ان المشكلة كانت في حد من هيئة التدريس! كلهم كانوا ناس محترمين جدًا وشخصيات كنت بحبهم ومازلت بحبهم، بس أنا كان عندي أزمة كبيرة مع

طبيعة القسم نفسه وكان عندي ألم نفسي شديد إن حاجات كتير في حياتي اتغيرت لما اتخصصت وإن طبيعته كانت مختلفة عن السنين اللي فاتت، حسيت اني مش لاقية نفسي وبجد كانت اول مرة في حياتي احس بكم التوهة دي .. كإني في متاهة مش بتخلص ... اقولك حاجة تضحك؟، كانت الحاجة الوحيدة اللي مصبراني هي إن ترابيزتي في السكشن كان وراها شباك كبير اوي بيشوف البحر! "

أهدتني مريم ورقة من مذكراتها، وقالت لي أن هذه الورقة كتبتها في آخر يوم لها في الفرقة الأولى

" (وداعًا نافذتي) أكره فكرة الوداع بالقدر الذي أحببت فيه الوداع هذه المرة! وكيف لشخص أن يحب الوداع مثلي اليوم .. أمضيت هنا ما لا يقل عن خمسماءة ساعة، ٢٧٠ يوم ..مرّوا كما مرّوا واليوم أجمع أدواتي .. أنظف طاولتي ترحيبًا بالزوار الجدد، لن أصعد هذه الطوابق مجددًا .. ربما يُحذَفُ اسمي من كشوفات الفرقة الأولى وتغيب ظلالنا عنه .. أمضيت ما أمضيت .. ما ضحكت وكم بكيت .. فَسلامًا إلى مقعدي وإلى نافذتي .. سلامًا لشعوري كلما كان الامر يشتد

فأتذكّر أن البداية بعيدة جدًا والنهاية ابعد .. سلامًا إلى كل لحظة تلهّثت فيها الشهيق وتقيّأت الزفير واختنقت الأنفاس في صدري واختلطت الأمور .. كنت أعد الايام عدًّا إلى ان ينتهي الامر، سلامًا إلى الحرية المطلقة .. بلا أجنحة سلامًا إلى أول عام حطّم ما حطّم وبنى ما بنى .. وداعًا غير آسفٍ على ما مضى .. والحمد لمن بيده ملكوت كل شيء في السراء والضراء .. والحمد له اولاً واخرًا .. كل الحمد .. عذرًا يا نفسي .. ليس المرء من حديد وليس الشغف سرمديًا .. "

كانت تكرر لي مريم دائمًا أنها لم تكن مثل الطلبة الذين لا يحبون دراستهم، ولكنها كانت تتعرض لكم هائل من الأذى النفسي تجاه التخصص بشكل عام وأن هذا الامر كان يحطمها يومًا بعد يوم، وبالرغم من ذلك فإنها لم تستسلم، وكانت تحاول دائمًا جاهدة أن تحضر جميع المحاضرات والحصص وأن تبذل قصارى جهدها في تحقيق أفضل آداء ممكن، في ذلك الوقت كانت تقول مريم " أنا معنديش ولا سبب يخليني أتفاءل إن السنين الجاية هتبقى أحسن، سنة أولى لوحدها عدت عليا كابوس والله كل ما افتكره بتصعب

عليا نفسي إزاي عديت بشيء مؤذي نفسيًا زي كدا، والغريب إنه كان مؤذي عليا أنا بس! يعني واضح إن المشكلة كانت فيا أو إنه ابتلاء أنا كنت بتعرض له، ومقدرش اتهم حد إنه كان سبب فيه، بس أنا اللي اخترت غلط من البداية ... كل اللي كنت شيفاه قدامي إن مستقبلي بينتهي، أنا في دراسة مش بحبها وفي مكان مش متقبلاه، كنت شايفة إن كمان سنة ممكن اكون بسيب الكلية خالص وامشي أو حتى ما اكملش دراسة، كنت شايفة مستقبل مظلم مفيش أي معطى أو مقدمة بتقول إن ممكن يكون ليا خير في المكان دا "

تقول مريم أنها في هذا الموقف كانت دائمًا تشعر بعقلها يخبرها أن هذه هي نهاية مشوارها الدراسي ويجب عليها أن تستسلم، اصبحت مريم ملزمة بأن تكمل ثلاث اعوام أخرى في هذا المكان الذي لا تتقبله لساعة فكيف ستتقبله لسنوات أخرى! فقدت مريم شغفها في كل شيء وليس في الدراسة فقط، تشتت واتجهت إلى نشاطات كثيرة، حاولَت في ذلك الوقت أن تتجه إلى التصوير الفوتوغرافي، وقالت لي أنها

كانت تتمنى ان تكون مصورة محترفة مشهورة ... ولكنها لم تنجح بالرغم من أنها بذلت الكثير من الوقت والمجهود في ذلك! تعلّمت الرسم وحاولت كثيرًا أن تكون فنانة تشكيلية وبالفعل كانت تنجح في رسم لوحات كاملة ولكنها تلقي بها في درج المكتب، في ذلك الوقت كانت تهرب مريم من الخسائر التي تتعرض لها في القراءة، اصبح الكتب رفاقها الدائمين وكنت أجد في يدها كتابًا مختلفًا كل يوم، سألتها في تلك الفترة ماذا تقرأين، فقالت لي " أقرأ في أمور الكون، في أمور الدنيا والدين، في أمور هذا العالم الغريب، لعلي افهم ما يحدث .... "، مرت مريم بأعوام من التخبط والحزن، لم يكن يدري أحد عنها شيئًا، تقول لي مريم " الناس كلها كانت فاكرة إني عشان مهندسة وكدا يبقى دي حاجة ممكن يحسدوني عليها مع أني والله كنت شخص تعيس جدًا، ياريت كان حد يحس باللي حسيته وقتها وقد إيه كنت في ابتلاء طويل .. المظاهر فعلًا مش كل حاجة "

مرت الأعوام على نفس الحال، كانت مريم تزداد حزنًا وألمًا يومًا بعد يوم، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها إنسانًا وهو

ينطفئ على مدار سنوات، وكأنه ابتلاء طويل وحزن وألم طويل لا يعرف أي شخص عنه شيء، ولا يدري أحد ما تمر به مريم، حاولَت كثيرًا التغلب على هذا الحزن بالبحث عن نجاحات صغيرة، شاركت في العديد من المسابقات الهندسية والمعمارية ولكنها كانت دائمًا تخسر في اللحظات الأخيرة! هذا الكم والعدد الهائل من المسابقات كانت لا توفق أبدًا في اي منها! حتى أنها دائمًا ما كانت تُرفَضُ أوراقها للتقدم للتدريب في معظم الشركات والمكاتب بالرغم من أنها كانت متفوقة! قالت لي مريم بسخرية وضحك " كنت حاسة إن الناس كلها مستقصداني وإن العالم بيتآمر عليا من كتر الحاجات اللي كنت بترفض فيها، انا كان باقيلي شوية واترفض في حاجات ما قدمتش فيها اصلًا! "

في عامنا الثاني بالقِسم وضعت لنا هيئة التدريس مشروعًا جديدًا، وأخبرونا أن هذا المشروع سيكون بمثابة ابتكار جديد لم يسبق لأحد تصميمه، وأن كل طالب سيقوم بتصميم مبنى صغير يتكيف مع بيئة معينة عن طريق تقنية " المحاكاة الحيوية"، في أثناء هذا المشروع كانت مريم تشعر

بحزن شديد وأكثر وأشد من الحزن الذي كانت تشعر به طوال السنوات السابقة، في بداية المشروع كانت تحاول بأفضل ما يمكن أن تصمم هذا المبنى ولكن جميع الأفكار كانت تنفذ منها، كانت تحصل على درجات قليلة في بداية المشروع وهذا كان مؤشرًا سيئًا لأنه كان مشروعًا هامًا بالنسبة لها، واعتبرته تحديًا لقدراتها ولكنها للأسف لم تنجح فيه بالقدر الكافي .. وكان هذا سببًا لإحباط مضاعف وحزن مضاعف لها، وفي اختبارات نهاية العام، أصيبت مريم بحمى وأزمة تنفسية ولم تستطع حضور بعض اختبارات نهاية العام!

قالت لي مريم في حواري معها

" عارفة لما كل حاجة تتفق إنها تبوظ في نفس الوقت؟، كان دا إحساسي طول فترة الدراسة، بالرغم من إن درجاتي كنت عالية، إلّا اني كنت شخص تعيس وحزين جدًا، ما تتخيليش اليوم اللي رحت فيه اللجنة وتعبت هناك وروَّحت البيت كان إحساسي ايه! بعد كل التعب دا طول السنة

ببساطة كدا ما ادخلش الامتحان أصلًا! أنا حاولت في عز ما أنا تعبانة اني ادخل اللجنة بس ما قدرتش حتى ابص في الورقة! تخيلي حد طالع من المستشفى على لجنة امتحان فاينال من غير ما يفتح كتاب! وكنت رايحة امتحن مادة صعبة جدًا من قسم ميكانيكا، ازاي ممكن اركز في ارقام وحسابات وأنا في الحالة دي! "

وتابعت مريم " لحد الوقت دا كان عقلي بيقولي مستحيل يكون ليكي خير في المكان دا، كل حاجة حاولتي فيها باظت، استسلمي بقى مش دايمًا العند بيكون نهايته انك توصلي! أحيانًا لازم نستسلم، بس في نفس الوقت كان جوايا صوت تاني بيقولي وانتي لما استسلمتي اخدتي ايه يعني! كملي! وصوت يرد عليه يقول استسلمي بقى على الأقل هتاخدي راحة البال، كان الاستسلام بالنسبالي هو إنّي ابطل مذاكرة وابطل اخد كورسات وابطل اعمل اي شيء بيرهقني نفسيًا لإني في مكان أصلًا مش متقبلاه، كنت مخنوقة أوي من فكرة ان لسة كتير عقبال ما اتخرج أنا لسة مضطرة استحمل سنين تانية غير اللي فاتت! "

عندما وصلت مريم لحالة من اليأس، اخذَت قرارًا مفاجئًا وصعبًا .. بأنها ستقوم بالتحويل من جامعتها إلى جامعة أخرى لتعيد الدراسة من البداية في مكان تحبه وتجد شغفها فيه!

قالت مريم " لما أخدت القرار دا ،لأول مرة كنت احس بالحرية، حسيت ان في حجر ضخم اتشال من على نَفَسي وبقيت عارفة اتنفس أخيرًا! كنت خايفة جدًا من اللي جاي، بس في نفس الوقت كنت شايفة إن بقى مستحيل يكون ليا أي مستقبل في المكان دا تاني، عقلي كان بيقولي إن كل المؤشرات والمقدمات والمعطيات اللي قدامي بتقولي أمشي حتى لو هتجازفي، مع أني كنت قطعت شوط طويل اوي بس كنت خلاص وصلت للحظة الظلام الدامس، أنا ما بقتش شايفة قدامي وما بقتش عارفة الخطوة الجاية رايحة فين، قرارات الدراسة دي قرارات مصيرية بتحدد لنا شكل وصورة مستقبلنا لسنين قدام، وأنا ما كنتش عايزة افضل عايشة في نفس الحزن وفقدان الشغف اللي عِشت فيه ايام الكلية باقي عمري، ازاي هقدر اكمل في مجال مش بحبه، أنا

كنت بدأت احس إن المجال كمان ما بيحبنيش، عارفة ... من كتر الفشل اللي حسيت بيه في الوقت دا .. كنت شوية وهفشل في حاجات أنا ما حاولتش فيها أصلًا! حتى درجاتي العالية مع الوقت بدأت تنزل لدرجة إني بقيت اجيب مقبول في مواد كنت بدعي انجح فيها مع اني كنت شاطرة جدًا في بداية الدراسة بس الحزن وفقدان الشغف دمرني .. "

كانت مريم سعيدة جدًا بقرارها أخيرًا في تغيير مجال دراستها وتركها هذا المكان الذي لا تحبه، وبالفعل بدأت في إجراءات التحويل وكانت المفاجآة..

اكتشفت مريم أن هناك الكثير من المشاكل ستحدث في مرحلة التحويل والانتقال بين الجامعات، حتّى أنها قد تتضطر لإعادة أعوام إضافية غير الأعوام المخصصة للقسم وأنها قد تحتاج لعمل معادلة لتحويل نظامها إلى ساعات معتمدة يمكن للجامعة الأخرى تنسيقها على أساسه وأنها قد تتضطر لإهدار وقت طويل قد يقدر بأشهر أو سنوات للبدء من الصفر مرة أخرى! لم تحكِ مريم تفصيلًا المشكلات التي واجهتها في هذا الصدد،ولكنها ذكرت انه اصبح من

المستحيل عليها التحويل في ذلك الوقت وإلّا ستكون الخسائر أكبر من المكاسب بمراحل! واضطرت إلى العودة لإكمال مشوارها الحزين، الذي تبقى له الكثير، وقد نفذت كل أسبابها، وانتهت كل معطياتها بالأمل، وصار مستحيلًا عليها ان تكون سعيدة في هذا المكان الذي تقضي فيه أغلب يومها ووقتها، وقالت مريم " ما كانش في شيء مستحيل عليا في الوقت دا أكتر من إني أبقى سعيدة أو أحس إن في أمل حتى، الإنسان بيعيش بالأمل، لو فقده بيبقى كإنه ميت، وبالنسبة لشخص معندهوش أي مؤشر إن بكرة ممكن يكون أحسن، كان مستحيل على عقلي إنه يتوقع أي خير،في المواقف اللي زي دي بيبدأ الدماغ يحط حدود بكلمات زي (مستحيل خلاص – الموضوع انتهى – انسى) .. وفعلًا بيكون شيء منطقي جدًا إن حد معندهوش أي سبب يخليه يتفائل إزاي هيتفاءل بحاجة مش موجودة أصلًا! مفيش حاجة كانت بتصبرني في الوقت الصعب دا غير إيماني إن اليأس حرام، وإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز ﴿

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: ٨٧]

وعادت مريم لتكمل حزنًا لا تستطيع الهرب حتّى منه .. فكيف كانت اعوامها القادمة؟

أصبحت مريم الآن باحثة ماجستير بكلية الهندسة وهي في عمر الرابعة والعشرين، تخرجَت بتقدير امتياز بمشروع التخرج وكانت من أوائل دفعتها الذين تم تكريمهم بنقابة المهندسين في نفس العام، مريم الآن ليست مصورة فوتوغرافية ولكنها مدربة تصوير فوتوغرافي، شاركَت بلوحاتها في العديد من المعارض الفنية وحازت على المراكز الأولى بمسابقات فنية وفعاليات ضخمة بمكتبة الإسكندرية، شاركت مريم في معرض القاهرة الدولي للابتكار بمشروعها عن التكيف البيئي، والذي حازت فيه على امتياز بعد تحدِ لذاتها على تحويل فشلها فيه إلى نجاح، اختارتها العديد من القنوات الفضائية لعرض مشروعها في لقاءات على الهواء وهي ابنة العشرين عامًا، شاركت مريم في المشروع الوطني

للقراءة ممثلةً كليتها واستطاعت أن تكون من أوائل محافظتها لعامين متتاليين وتمثلها في نهائيات تصفيات الجمهورية، استطاعت الفوز على مستوى جامعتها في العديد من السابقات الثقافية الأدبية، تم تكريم مريم في العديد من الفعاليات عن مُجمل اعمالها الفنية والأدبية والعلمية، أصبحت مريم كاتبة روائية ومؤلفة

وهي التي تكتب إليكم هذا الكتاب اليوم ..

مريم .. هي أنا.

أنا لا اقول إطلاقًا أن ما وصلت إليه هو افضل شيء، ولا حتى أشيد بنفسي، وإني لأرى شتى خلق الله أفضل مني، ولا فضل لي على مخلوق ولا أنا شخص مثالي، ولا حتى اقول أني عالِمُ أو الأفضل في شيء، ولكني مجرد شخص يروي قصته بمفهومه وفلسفته عن " الخروج من الصندوق "، لعل هذه الفكرة او هذه الفلسفة تفيد شخصًا آخرًا أو تبث الأمل في أحد، فإذا كنت سببًا في حالة واحدة حتّى من الأمل، سأكون سعيدة بقدر هائل وأشعر أني فعلًا أديت رسالتي! لذلك كتبت في المقدمة " اكتب وكلّي أمل، أن يرزقني الله

فصاحة اللسان والمَنطِق لأبلغ مقصدي ومراده بإيجاز وبيان، وأن يوفق الله سرده لأصيغ سطورًا هُدى لا سُدًى، وأن يكون مُتواضِع رسم قلمي ثراءً لوقت قارئه "

أنا أعلم أن هناك الألوف من الحالات التي كانت تشبه حالتي، هناك الكثير من من يدرسون أو يعملون في أماكن لا يحبونها، هناك الكثير من الذين لم يستسلموا، وأنا شخصيًا أريد سماع قصصكم جميعًا، أريد أن يكون هؤلاء الأبطال مثالًا يحتذى به لكل اليائسين من طول الطريق أو ظلامه، يظن العالم أن الأبطال هم من يصنعون معجزات، فيحررون المظلومين بضربة من قبضة يدهم أو يصدون القطار الشارد عن مساره بذراع واحد، يظن الناس أن البطل هو فقط من يفعل معجزات! لكن الأبطال الحقيقيين هم أنتَ وأنتِ، هم من قرر فعلًا أن يغير حياته إلى الأفضل، هم من تحملوا الصعاب في سبيل أحلام أكثر سموًا، هم من يضربون في الأرض سعيًا بلا ملل ولا يأس بالرغم من استحالة الأسباب ومشقتها! الأبطال هم من يتحملون وظائف لا تطاق لأجل توفير " لقمة العيش " لأطفالهم، الأبطال هم من يجاهدون

انفهسم لإكمال مسيرة طويلة وشاقة في رحلة تعليمية مؤرقة، هذا البطل في كلية الطب الذي يتحمل عددًا ضخمًا من الاعوام الدراسية بلا راحة وبلا إجازات في سبيل رسالة سامية! هذا البطل في كلية الهندسة الذي تكاد رأسه تنفجر من كثرة المعادلات والأرقام والحسابات الرياضية! هذه البطلة في كلية الآداب التي تتحمل كمًا كبيرًا من المعلومات صعبة الفهم والحفظ والمذاكرة في سبيل رسالة سامية! هذا البطل في كلية العلوم والصيدلة الذي يقضي عمرًا بين المعادلات الكيميائية المعقدة دون أن يتعب، هؤلاء الأبطال في كلية التجارة والزراعة والعلوم السياسية وغيرهم، كلكم أبطال!

مشكلة الإنسان أنه يقلل دائمًا من شأنه ومن قيمته، ولا يشعر كم هو ذو تأثير وقيمة، أو أن ما يفعله له رسالة سامية! كل العلوم لها رسالات سامية، وكل الوظائف لها رسالات أسمى، وكلنا مهم.

لن أقص عليكم من أخبار المشاهير وأسألكم ماذا كان أينشتاين قبل أن يكتشف النسبية؟ أو ماذا كان بيل جيتس

أو غيرهم! فأنا شخصيًا اعتبر أن الحالات الفردية لا يمكن تعميمها، وأن هذا سقف طموحات كاذب يضعه الإنسان لنفسه، أنا أعلم أنه ليس مستحيلًا أن تصير أنت حتى أفضل منهم جميعًا! ولكن من الخطأ الفادح أن يضع الإنسان أمام عينيه تجربة شخص آخر ويسعى لأن يسلك نفس مساره! أغلب الذين حاولوا أن يكونوا مثل بيل جيتس فشلوا! لأنهم يسلكون في كل مرة خطاه! ولكن خطاه كانت تناسبه هو فقط! لا توجد تجربة ناجحة واحدة مُكررة نفسها بين شخصيتين أو اكثر! كل شخص يسلك مساره الشخصي والخاص ليصل إلى هدفه الشخصي والخاص به أيضًا! النجاح مثل البصمة، لا يمكن أن يتكرر بنفس تفاصيله وخطاه ومعطياته ونتائجه، لذلك فإنّي أؤمن كثيرًا ان القصة الملهمة في حياتك يجب أن تكون فقط قصتك .. وليست قصص الأخرين، نحن نقرأ قصص الأخرين لنعلم أن هناك دائمًا أملًا، ولكن ليس ليكون خطاهم خُطأنا ولا مسارهم مسارنا ولا حتى للتسليم بأن كل خاسر سينجح يومًا! كل الناجحين خسروا في يوم من الأيام، لكن ليس كل الخاسرين

ينجحون! فقط من يتحدى نفسه، فقط من يكمل الطريق،
فقط من يسعى .... هو من ينجح

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ﴾

[النجم: ٣٩-٤٠]

الباب الأول

الفصل الأول

(السر، درّب نفسك كيف تفكر!)

السر في فلسفة الأحجية، وملخص كل ما ذكرناه عن أحجار اللعب والمتسلسلة الرياضية أن دماغنا يفكر بنمطية ضخمة، تتمثل في تنبؤه بالمستقبل الذي يرى منه مؤشرات فقط وتجاهله لأي نتيجة لا يرى أسبابها في وضعه الراهن، وللخروج عن الصندوق والتفكير خارج نطاق النمطية وابتكار واستحداث نظريات علمية وفلسفية وأدبية جديدة أو حتى

التفكير في الحياة اليومية بطريقة مبتكرة ومختلفة، يجب على المرء أن يبدأ في توقع النتائج التي لا يوجد لها مؤشرات حالية، كما أيضًا يجب عليه السيطرة تدريجيًا على ذاته بمنعها من الافتراض لملء الفراغات أو الافتراض العبثي وأن يكون المرء منهجيًا في تفكيره لا يفترض بشكل دائم، والأهم في قضية منعه من الافتراض المطلق هو منعه من الافتراض في محدودية الحلول، والخروج من إطار النمطية الضيّق إلى إطار اللا محدودية الأوسع ومن إطار الحلول التقليدية إلى إطار الحلول الغير متوقعة في الأوقات الغير متوقعة!

ربما يتعجّب البعض منكم لماذا اقوم بتكرار نفس الخلاصة مرة اخرى بالرغم من أنها ذُكِرَت في الباب الثاني في بداية الكتاب! وربما يتعجب البعض أيضًا لماذا جاء الباب الأول بعد الباب الثاني، لقد تعمدت تكرار الخلاصة ليكون نموذجًا عن تكرار العقل لهذه الأخطاء على مدار اليوم والساعة الواحدة، كما أن التكرار في حد ذاته قياسًا على مواقفٍ مختلفة مثل كريم ومريم وغيرهم يجعل من السهل

على العقل ان يُسقِط الخلاصة " فلسفة الأحجية " على مواقفه الحياتيه لاحقًا إذا تعرض لمواقفٍ مشابهة، لذلك فإن هذا التكرار ليس عبثيًا بل مُتعمدًا، أما الفصل الثاني فجاء أولًا لأن الأولوية والأصل كانت للفصل الأول أن يكون مدخلًا لفلسفة الأحجية مباشرةً ويشرح الهدف المرجو منها، ولكن عند صياغة هذا المؤلَّف وجدت أنه من الأسهل التدرج في الموضوعات بدايَة من مبادئ الفلسفة وكيف يفكر الإنسان وقضية العقل اللين ثم الأحجية والمتسلسلة كاف والورقة والدائرة وقضية التفكير النمطي والافتراض العبثي وموقف كريم ومريم لأنتهي حيث اردت أن أبدأ .... بالباب الأول في نهاية الكتاب (السر، درّب نفسك كيف تفكر).

كيف تفكر؟

من الصعب جدًا على العقل تقبل هذه المبادئ الجديدة المطروحة أعلاه فجأة، ومن الصعب أيضًا عليه تغيير ذاته التي يتوارثها من المئات والآلاف من السنوات ليشكل وعيًا جديدًا حتى ولو جزئيًا، ولكن أظن أن هناك بعض التدريبات التي إذا قام بها المرء يمكنها تغيير ذهنه ولو بشكل بسيط.

يظن المرء أنه يسيطر على عقله، ولكن في الحقيقة أن عقولنا هي التي تسيطر علينا، ولكي نخرج عن الصندوق فعلًا فيجب علينا أولًا التحرر من سيطرة العقول، سيسألني البعض كيف تسيطر عقولنا علينا؟

هل سبق لك أن تعرضت للضرب أو السقوط في المنام مرة أو عدة مرات وشعرت بألم شديد في جسدك؟ واستمر هذا الألم لدقائق او ثوانٍ بعد استيقاظك ثم ذهب من تلقاء نفسه؟

هل تعلم بأن مثل هذه الحالات يقوم الدماغ بدلًا من استقبال الرسائل العصبية من العضو الذي تعرض للضرب ليشعرك بالألم، فإنه يرسل إشارات معاكسة نتيجة تخيّله

لأنه تعرض للضـــرب فتجعلك تشـــعر بالألم تمامًا وكإنك تعرضـــت لهذا الضـــرب بالرغم من أنك نائم في ســـريرك؟ فعندما يتعرض الشخص للضرب في الحلم ويحدث له حالة من الألم، لا يســتقبل دماغه رســائل الألم من المســتقبلات العصــبية في أعضــاء الجســم المختلفة، بل إنه يســتوحي ترجمتـه عن الألم من الـذكريـات المؤلمـة التي حـدثـت في ماضي الشخص الحالم. (١٤)

تقول إيرين وامزلي وهي أســتاذ مســاعد في علم النفس في جامعة فورمان في ســـاوث كارولينا: «أكاد أجزم أنه حتى الألم الحقيقي ما هو إلّا مجرد وهم يدور في عقولنا ».

I argue that even real pain is a kind of "
"','everything in my head

ويعتبر الكثيرون الألم تجربة دماغية تحدث داخل العقل نفسه

فتخيل أن الدماغ الذي يجعلك تشعر بالألم بدون أن تتعرض حتى للمسة واحدة هو ذاته الذي يقنعك بأن كل الأسباب ستؤدي إلى الفشل أو اللا شيء وأنت تصدقه!

وبالرغم من ذلك فهناك تجارب على النقيض تمامًا مثل تجربة الفئران التي ذكرناها في البداية، والتي تغيرت فيها بنية الدماغ لدى الفئران المثارة عصبيًا طوال الوقت عن بنية الدماغ لدى الفئران في المنطقة الهادئة! والمرء لا يحتاج لمؤثر خارجي للتغيير أفكاره أو دماغه لأن المؤثر الأكفأ موجود داخل عقله وهو محض أفكاره! تستطيع افكار الإنسان أن تؤرق ليله وأن ترفع معدلات الأدرينالين لديه وأن تُشعره بالألم وأن تُسكِّن هذا الألم وأن ترخي عضلاته وأن تهدئ روعه وأن تقلق نومه! تتحكم أفكاره في سلوكه أكثر ما هو شخصيًا يتحكم في سلوكه، فماذا سيحدث إذا تحكمت الأفكار في العقل نفسه بدلًا من المؤثرات الخارجية واستطاعت تغييره!

إن عقل الإنسان يشبه العضلة التي تزداد قوتها بالتمرين المستمر، وأولى شروط هذا التمرين أن لا يمل الإنسان ولا ييأس من إحداث تغيير، من أسوأ النصائح التي دائمًا يتم ترديدها بالرغم من انها شبه مستحيلة هي "غيّر طريقة تفكيرك "، ولكن كيف سيغير المرء طريقة تفكيره والتي

تمثل كل حياته أصلًا بهذه السهولة! جميع من يقول لك " غير تفكيرك " لا يقولون لك كيف تفعل هذا! ولكن فعلًا الإنسان يستطيع تغيير تفكيره لكنه يحتاج إلى خطوات كثيرة لفعل ذلك، مِثل أن يقوم بهذه العملية تدريجيًا فمثلًا إذا كان الإنسان كسولًا، فعليه تغيير طريقة تفكيره عن الكسل والنشاط ولكن ليس ذلك حادثًا في يوم وليلة! لا يوجد إنسان ينام اليوم كسولًا ويستيقظ نشيطًا بمحض إرادته! حتّى الإرادة المفاجئة التي تصنع هذه التغييرات غالبًا تنتكس بعدها مباشرة أو بوقت قليل لأنها مصطنعة وطائشة، التغييرات الحقيقية لا تتحقق سوى بالمِران والتكرار المستمر بهدوء حتى لا يشعر المرء بمشقة هائلة تجعله كارهًا أصلًا لطريق التغيير نفسه ويود دائمًا العودة إلى منطقته الآمنة (مثلًا هنا هي الكسل)، ولكن على العكس فإن تغيير العادات يحتاج إلى وقت وتدريب والأهم من كل ذلك إصرار على التغيير، تغيير العادات السلوكية لا يختلف عن تغيير العادات الفكرية، فإذا كان المرء معتادًا على أن يكون متشائمًا، لا يمكنه أبدًا ان يصبح غدًا متفائلًا مبتسمًا،

فطبيعة عقله ونطاقه الآمن يفكر دائمًا في أسوأ الاحتمالات فيجعله في حالة خوف دائم وتشاؤم، في بداية الأمر يمكنه أن يتشائم من أغلب المواقف وأن يتمالك ذاته في موقِفٍ واحد على الأقل يوميًا يتفاءل فيه، قد يشعر في البداية أن الأفكار التشاؤمية تطارده كالوسواس ولكنه إذا نجح في الإعراض عنها وقيادة ذاته للانشغال في اي شيء آخر فسيستطيع فعل ذلك كثيرًا، بل وسيشعر أنه أخيرًا انتصر على مخاوفه وهي مغادرة المنطقة الآمنة (التشاؤم إلى التفاؤل)، شعور المرء بسعادة الإنتصار على خوفه ليس مجرد شعور بالنصر، بل هو أحد أكبر المحفزات له ليكسر المزيد من الحواجز التي لطالما وضعته في حيّز ضيّق كان يختنق فيه لسنوات بسبب تفكيره القاصر على (الكسل، التشاؤم، ..) أو غيرهم من العادات الفكرية الضارة، وأنا شخصيًا أعتبر التفكير النمطي أيضًا هو عادة ضارة! لذلك فإن التفكير النمطي والتقليدي والمباشر بالرغم من أنه يتمتع بقدر هائل من الأمان إلّا أنه لن يجعلك مميزًا أبدًا، هناك أشخاص في هذا العالم يؤجرون على التفكير! يؤجرون على الخروج عن الصندوق، في كل

شركة في كل مؤسسة في كل هيئة او منظمة في هذا العالم يوجد مجموعة من المفكرين وجودهم الأساسي والأول هي افكارهم الخلّاقة التي يمكنها أن تنقل المؤسسة بأكملها إلى العالمية! ماذا يفعل هؤلاء المفكرون؟ هل ولدوا هكذا؟ أم أنهم استطاعوا تطويع وتدريب عقولهم على كسر النمطية؟

ومن أحد الأسئلة التي جالت في خاطري عند تأليف هذا الكتاب، إلى أي مدى يستطيع الدماغ تغيير نفسه؟ هل يمكن أن نصل في أحد الأيام إلى دماغ خارق؟ يستطيع توليد أفكار غير مألوفة بشكل دائم وحلول مبتكرة لأي مشكلة يتعرض لها؟ هل يمكن أن يساهم العِلم في تطوير أدمغة بعض الأشخاص بهدف توريثها؟ هل هذا التغيير أصلًا سيكون في الدماغ فقط أم في الخريطة الجينية الذي يورثها الآباء أيضًا؟ إن هذه الأسئلة في حد ذاتها تعتبر تدريبًا للعقل على الخروج عن النمطية، لو أمعنت التفكير في الاسئلة التي طرحناها منذ بداية الكتاب عن منظومة الأرقام وعن الأحجية وعن المتسلسلة الرقمية وغيرها من الأمثلة

المذكورة ستجد عقلك بدأ في التفكير خارج حدوده المألوفة، وتوقع نتائج مختلفة من نفس المعطيات التي لدى العامة! أو حتى رؤية معطيات جديدة لم تكن موجودة قبلًا!

تخيّل لو أنك فعلت هذا التدريب يوميًا، على الأقل في موقفٍ واحد تمر به تجبر عقلك على أن يفكر في حل خارج الصندوق تمامًا، وإن كان حلًا خاطئًا فمثلًا أن تقول بأن إجابة ثلاثة جمع أربعة هي واحد! ثم تفكر كيف يمكن أن يصبح ثلاثة جمع اربعة مساويًا للواحد؟ فمثلًا بالرغم من أنني ألّفت هذا السؤال الآن، ولكني وجدت له إجابة، سيكون جمع الثلاثة والأربعة واحدًا إذا كانت الثلاثة سالبة مثلًا، أو إذا كان الثلاثة والأربعة هم اشخاص سيشكلون فريقًا واحدًا! ويمكنك بهذا الشكل أن تجد عددًا لا نهائيًا من الحلول بالرغم من كونك أصلًا أجبت إجابة خاطئة وهي أن الثلاثة جمع أربعة نتيجتهم واحد! كل ما حدث الآن هو ضرب من العصف الذهني وإن كان بمقياس بسيط، ولكن ماذا سيحدث إذا قام الإنسان بممارسة هذا النشاط يوميًا؟ يطرح أو يتعرض لمسألة او إشكالية ما، فيفكر في إجابة غير تلك

التقليدية سواء كانت أخرى صحيحة او أصلًا إجابة خاطئة! ثم يبحث عن تفسير منطقي أو غير منطقي لهذه الإجابة الخاطئة – الإجابة ليست خاطئة لأن في كل الأسئلة جميع الإجابات ستكون صحيحة بشكل ما، ولكنها تعتبر خاطئة بالنسبة للطريقة التقليدية في التفكير النمطي لذلك استخدم مصطلح (إجابة خاطئة) لكي يكون مفهومًا للقارئ – إذا فعل الإنسان هذا النشاط يوميًا وزاد منه قليلًا كل يوم، هل من الممكن مع الوقت أن يصبح دماغه يفكر بطريقة غير تقليدية؟ وأن يجد حلولًا غير مألوفة للمشاكل؟ أو يستطيع التفكير في مسائله الشخصية بشكل جديد ومبتكر؟ اتتوقعون لهذا العقل أن يتعرض لليأس أبدًا؟ هذا العقل سيستطيع - بمشيئة الله طبعًا – أن يتوقع عددًا هائلًا من المخارج في كل مضيق، وعددًا هائلًا من الفرص في كل فشل، وعددًا اكبر من الاحتمالات في كل مستحيل!

الباب الأول

الفصل الثاني (أنت)

في حياتنا اليومية، وفي مشاكلنا العظمى وإخفاقاتنا الكبرى .... والصغرى أيضًا، نستطيع تطبيق نفس مبادئ الأحجية والمتسلسلة وتحرير عقولنا من نمطيتها، فمثلًا عندما تتقدم لاختبار ولا تنجح فيه، تذكر أن أسبابك الوحيدة ومقدماتك المشهودة هي أنك رسبت، ولكن ما لا تراه قد يكون أكثر وأضخم، فربما هذا الرسوب سيسير بك في درب كنت ستتمناه أصلًا؟ أو ربما أنك لم ترسب، ربما نجحت ولكن حدثت مشكلة في التصحيح حتى وإن لم يكن من الممكن تغييرها ولكنك أصلًا نجحت! أو ربما رسوبك سيسمح لك بإعادة المادة بشكل افضل وفي النهاية ستضاف درجات أكبر على مجموعك من لو كنت نجحت في المرة الأولى؟ أو ربما أنك أثناء مذاكرتك لنفس المادة للمرة الثانية ستكتشف نقطة مفصلية تفتح لك بابًا في الدراسات

العليا وتصبح باحثًا لاحقًا! أو ربما أن رسوبك سيكون درسًا لك تتعلم منه شيئًا في موقف أكبر وأهم ستحتاج فيه هذه العظة، أو **ربما أن الأمر ليس متعلقًا بالرسوب أصلًا وأنك تُساق لاتجاهات أخرى تمامًا،** سيبدأ عقلك تدريجيًا في الخروج عن حدود المعطيات المألوفة والتفكير في اتساع الكون الشاسع، لتبدأ في معرفة حجم رسوبك الحقيقي أمام هذا العالَم! وأنه شيء ضئيل جدًا لا يمثل حتى قطرة في المحيط، تبدأ بإدراك حلولًا أبعد، ربما أصلًا شهادة تخرجك هذه التي تسعى أن تنجح في كل الاختبارات من أجلها لن تفيدك ولكنها ستكون مجرد مرحلة في حياتك تعلمت منها شيئًا، ربما أنك أصلًا لن تعمل أو يتم توظيفك بهذه الشهادة! وقتها لن يهم أصلًا كم مادة رسبت بها! ربما أنك سيتغير مسار حياتك بعيدًا عن الدراسة وستتجه إلى السفر وستجوب العالم وستصبح هذه هي وظيفتك ولن تتذكر شيئًا عن هذا الاختبار الذي رسبت به، فجأة بدأت الأسباب في عقلك تتحول من الرسوب في الاختبار وكيف يمكن أن يكون له حلول أخرى إلى أن **حياتك نفسها يمكن أن لها**

حلولًا أخرى لن يكون الاختبار أصلًا جزءًا منها! ويبدأ تفكيرك في الاتساع تدريجيًا حتى يصبح عقلك يفكر بمنظور الشخص الثالث، الذي يراك أنت والأحداث كالمُشاهِد من بعيد لا يتأثر -بمصائبك ولا خسائرك! ستصبح أنت نفسك هو الشخص الثالث ..

بالتفكير في قصة كريم مرة أخرى، إذا تبادلتما الأدوار وأصبحت انت كريم، هل كنت ستتوقع عندما أخطأت في الرد على العميل أن ذلك سيقودك في النهاية للسفر إلى أوروبا! كل ما كان يفكر فيه كريم في هذه اللحظة هو النتائج المباشرة للكارثة التي فعلها خطًا! وكيف ستؤثر عليه **اليوم وغدًا**، لم يتوقع كريم أبدًا سلسلة الأحداث المتشابكة التي حدثت بعد ذلك! وهذا هو النمط الطبيعي للعقل البشري أنه يتوقع فقط النتائج المباشرة للأحداث، وإذا حاول توقع العديد من النتائج تجده يحتاج إلى مساعدة عن طريق ورقة وقلم لرسم خريطة ذهنية متشعبة ومتفرعة باحتمالات متعددة

حتى أنت إذا أمعنت التفكير في ماضيك ستجد أن كل حدث وقع معك في يوم كان له تأثير غيّر وجه حياتك تمامًا، حتى تلك الأحداث التي مرّت عليها سنوات طويلة ما زلت تختبر أثرها حتى الآن بشكل مباشر أو غير مباشر، هل عندما وقعت هذه الأحداث كنت تتوقع ما انت فيه الآن بنفس هيئته الواقعة حاليًا؟

ولكن في لحظة اليأس يغلق العقل نفسه على أفكاره التشاؤمية ويقنع صاحبه أنه لم يعد هناك مهرب ولا حل، لأن كل الحلول خارج نطاق استيعابه، لا يختبر منها دليلًا ولا سببًا بمنطقه، وأكبر دليل على أن اليأس هو شعور كاذب، أن المرء يستعيد كافة نشاطه وشغفه كاملًا بمجرد ظهور أي شرارة للأمل! فلو أن المرء فعلًا فقد كل طاقته في اليأس كما يُخيِّلُ له عقله لما استطاع أبدًا ان يقفز ناهضًا بمجرد ظهور شرارة أمل صغيرة جديدة! إننا من يصنع القيود ويصدقها، نحن من يكبل يُمناه بيسراه، نحن من يغلق الأصفاد ويضع المفتاح أسفل حذائه! كل قَيد وكل حد يقف في طريق هدفك، أنت من وضعه لا الظروف، فإذا كانت كل الإجابات

صحيحة إذًا فهناك عدد لا نهائي من الحلول لكل قيدٍ وحدٍ عرقلك! ولكنك من يأبى البحث عن هذه الحلول بتسليمك لنمطية تفكيرك، كم فرصة في هذا العالم الآن يمكنك أن تقفز لها شغفًا ولكنك لم تبحث عنها، حتى أنك لا تعرف انها موجودة أصلًا؟ كم فتاة في هذا العالم يمكن أن تكون زوجة صالحة لك ولكنك لم تغير طريقة بحثك النمطية عنها يومًا! كم وظيفة تلائمك ولكنك تهدر وقتك ومجهودك في الطرق التقليدية للبحث والتقديم؟ كم كلية يمكنك ان تلتحق بها ويكون لك منها مستقبل باهر ولكنك ما زلت تبكي لأنك لم تحصل على المجموع الكافي لكلية الطب! كم نحن تقليديون في كل شيء، ألم يحن الوقت بعد لنكسر حواجز الخوف من تغيير نمطية التفكير! إلى أي مدى سيظل الإنسان أسير خوفه من مغادرة المساحة الآمنة؟ وهل جربت يومًا مغادرتها؟ كل من جرّب الخروج من المساحة الآمنة وتجربة ما كان يخشاه قال أنه لم يحدث له شيء وأن مخاوفه كانت فقط في عقله! بل وقال أنه شعر بسعادة بالغة لأنه اخيرًا غلب خوفًا كان يغالبه عُمرًا!

أنا لا اقول إطلاقًا أن يغادر المرء المنطقة الآمنة ويخرج إلى معصية أو إلى خطأ أو ذنب أو يرتكب أي سلوك أحمق أو طائش أو إجرامي ولكن أن يغادر منطقة خوفه من تجربة الأشياء الجديدة عليه والتي هي حلال وصحيحة ومشروعة مائة بالمائة، مثلًا الأشخاص الذين يخافون من التقدم على الوظائف لأن سيرتهم الذاتية ليست كاملة، صراحةً يجب أن يعلموا أن خوفهم في رؤوسهم فقط، وأنهم لو حاولوا إكمالها لآخر عمرهم فلن يفعلوا، ليس لأنهم فاشلون ولكن لأن الكمال مثل حلول المشاكل، سرمدي، لا يمكن الوصول لنهايته، كما أن خوفهم الدائم أصلًا سيجعلهم في حالة سخط مستمر على أنفسهم وسيرتهم الذاتية، فستجدهم يقطعون عُمرًا ولم يتقدموا حتى لوظيفة واحدة، وهذه الشخصية موجودة كثيرًا في جميع أصدقائنا وزملائنا، مثل هذه الشخصيات يجب أن تجبرهم على تقديم سيرتهم الذاتية وهي في أسوأ حالاتها وهم في أكثر حالات عدم الرضا عنها، إذا فعلوا ذلك مرة واحدة فقط فلن يخشوا التقدم للوظائف مرة أخرى أبدًا، هؤلاء الأشخاص نمطيتهم في التفكير تحتم عليهم

السير في اتجاه واحد وهو إكمال السيرة الذاتية اولًا بقدر الإمكان قبل إرسالها! والخروج عن الصندوق بالنسبة لهم هو إرسال السيرة الذاتية ولو لمرة وهي في اسوأ حالاتها .. هذه هي الأمثلة التي أتحدث عنها، ومثلهم كمثل من يخشى السفر فقط لأنه تجربة مختلفة ويظل في كل عام يذهب لنفس الشاطئ في نفس المدينة لأنه يخشى تجربة شاطئ جديد قد لا يعجبه! هذه الشخصيات المحدودة في التفكير لن تستطيع أبدًا أن تختبر درجات اكبر من السعادة، بل وتظن أن مُنتهى سعادتهم في نفس الشاطئ الذي يذهبون إليه في كل عام، محدوديتهم تجعلهم يعيشون ويموتون وهم يظنون أنهم نالوا السعادة التي سعوا لها، بالرغم من أنهم لو كانوا اختبروا تجربة مختلفة ولو لمرة واحدة لكانوا اختبروا سعادة أكبر! وليست فقط سعادة التجربة الجديدة! بل سعادة كسر حواجز الخوف من الخروج عن المنطقة الآمنة والنمطية التقليدية ذاتها!

قصور التفكير ومحدوديته لا يؤثران فقط على السعادة، ولا تجعل المرء يخسر تجاربًا كانت من الممكن أن تغير

حياته فقط، بل يجعلنا ذلك محاصَرين في مجموعة ضيّقة من الحلول في كل شيء، ونظن أن الدروب التي نسلكها هي فقط الدروب الصحيحة أو حتى هي فقط الدروب الموجودة أصلًا!! نمطية وتقليدية ومحدودية التفكير أصبحوا أعداء لنا في عصر السرعة والتقدم والإبتكار، وأصبحت الريادة في شتى المجالات للأكثر إبداعًا وخروجًا عن الصندوق، وأصبحنا في حاجة ماسّة إلى تدريب عقولنا على التوقع بدون مقدمات والتنبؤ بسلاسل احداث لا منتهية لكل بداية وجِدَت أو لم توجَد بعد، وعلى قراءة وتحليل معلومات غير موجودة كمعطيات واضحة، والتأكد تمامًا أن لكل حدث سلاسلًا هائلة من النتائج المباشرة والغير مباشرة!

إننا نعيش في شبكة معقدة من الأحداث لا يمكن التنبؤ لها بنهاية واحدة أبدًا مهما كان الإنسان خارقًا في التوقع والتحليل والاستنتاج، فكل ما نستطيع التنبؤ به- حتى الآن - هو النتائج المبنية على معلومات نعرفها فقط، ولكن في الحقيقة أن العقلاء يعرفون أن ما يعرفونه أقل

بكثير من ما لا يعرفون، فكيف يمكن تحليل هذا القليل واستنتاج نتيجة ترجيحية بناء عليه إذا كان أصلًا ما لا نعرفه هو الأكثر؟

إن هذا الكون أحجية عُظمى، سنكتشف نحن اللاعبون – لا محالة – أننا لسنا محترفين بالقدر الكافي للعب، لذلك ننتكس ونفشل ونيأس، وأن هؤلاء المحترفين كانوا يعلمون من البداية أن الأحجية ليس لها حل واحد ولا حتى الألوف! فلم ييأسوا يومًا من إيجاد حل.

في هذا العالم الذي نعرف منه قدرًا ضئيلًا أمام ما لا نعرف، تصبح كل الأسئلة لها إجابات وإن كنا لا نعرفها، وتصبح كل إجابات الأسئلة صحيحة ..

هل فهمتم شيئًا؟

المراجع

١- مدخل إلى الفلسفة العامة، محاضرات السنة الأولى علوم اجتماعية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة محمد البشير الابراهيمي السنة ٢٠١٦/٢٠١٧، ص ٣

٢- يمليخيا، فيثاغورس حياته وفلسفته، ترجمة زياد الملا، دار أمل الجديدة، ط١، ٢٠١٧ ص ١٧-١٨

٣- الدكتور عاطف عراقي ودكتور عبد الحميد درويش، الفلسفة في مصر القديمة، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٨ ص.٩

٤- مشير باسل عون (مفكر لبناني)، بحثا عن فائدة الفلسفة في الحياة اليومية للإنسان المعاصر، اندبندنت عربية، الثلاثاء ٢٠٢١/٥/١٨

٥- محمد اديب السلاوي، فلسفة التنمية البشرية، هسبريس، ٢٩ /٦/ ٢٠١٩

٦- إياد أحمد نمر زبداوي، دراسة في قياس التننمية البشرية، مناقشة ٢٠٠٧ ص.٨

٧- عزمي سالم، لماذا نظرية النسبية صحيحة، ناسا بالعربي، ٢٠١٩/٨

٨- The Collected Papers of Albert Einstein, vol. 8A, R. Schulmann, A. J. Fox, J. Illy, eds., Princeton U. Press, Princeton, NJ (1998), p. 220.

٩- الدكتور نورمان دويدج، الدماغ وكيف يطور بنيته وآداءه، ص١٣

١٠- Huber, E. et al. Early Blindness Shapes Cortical Representations of Auditory Frequency within Auditory Cortex. Journal of Neuroscience 39 (26), 5143-5152 (2019)

١١- الدكتور نورمان دويدج، الدماغ وكيف يطور بنيته وآداءه، ص٤٩

١٢- E.R Kandel .2003. the molecular biology of memory storage : A dialog between genes and synapses > In H. Jornvall, ed .< Nobel Lecture, physiology or medicine، 1996-2000. Singapore : world scienti.c Publishing Co.,402

١٣- المركز الوطني للصحة التكميلية والتكاملية بأمريكا

١٤- Nielsen TA, McGregor DL, Zadra A, Ilnicki D, Ouellet L. Pain in dreams. Sleep. 1993 Aug;16(5):490-8. PMID: 7690981.

السيرة الذاتية للكاتب

سهى أسامة قاسم

- من مواليد مدينة الإسكندرية 1998.
- مهندس معماري ومصمم داخلي.
- مصمم ابتكار كبسولات الصحراء السكنية المشارِكة في معرض القاهرة الدولي للإبتكار ٢٠١٩.
- باحث ماجستير في كلية الهندسة جامعة الإسكندرية .
- اوائل محافظة الإسكندرية المشروع الوطني للقراءة ٢٠٢١ وممثل كلية الهندسة جامعة الإسكندرية في التصفيات النهائية

- اوائل دفعة ٢٠٢١ هندسة الاسكندرية قسم العمارة.
- اوائل محافظة الإسكندرية المشروع الوطني للقراءة٢٠٢٢ وممثل كلية الهندسة جامعة الإسكندرية في التصفيات النهائية
- مؤلف وكاتب روائي
- مصور ومدرب للتصوير الفوتوغرافي وفاز في العديد من المسابقات الرسمية
- فنان تشكيلي شارك في العديد من المعارض المحلية
- QR code الخاص بصفحة الكاتب على فيس بوك والتي يقوم بنشر اخبار الكتاب عليها ؟



فهرس